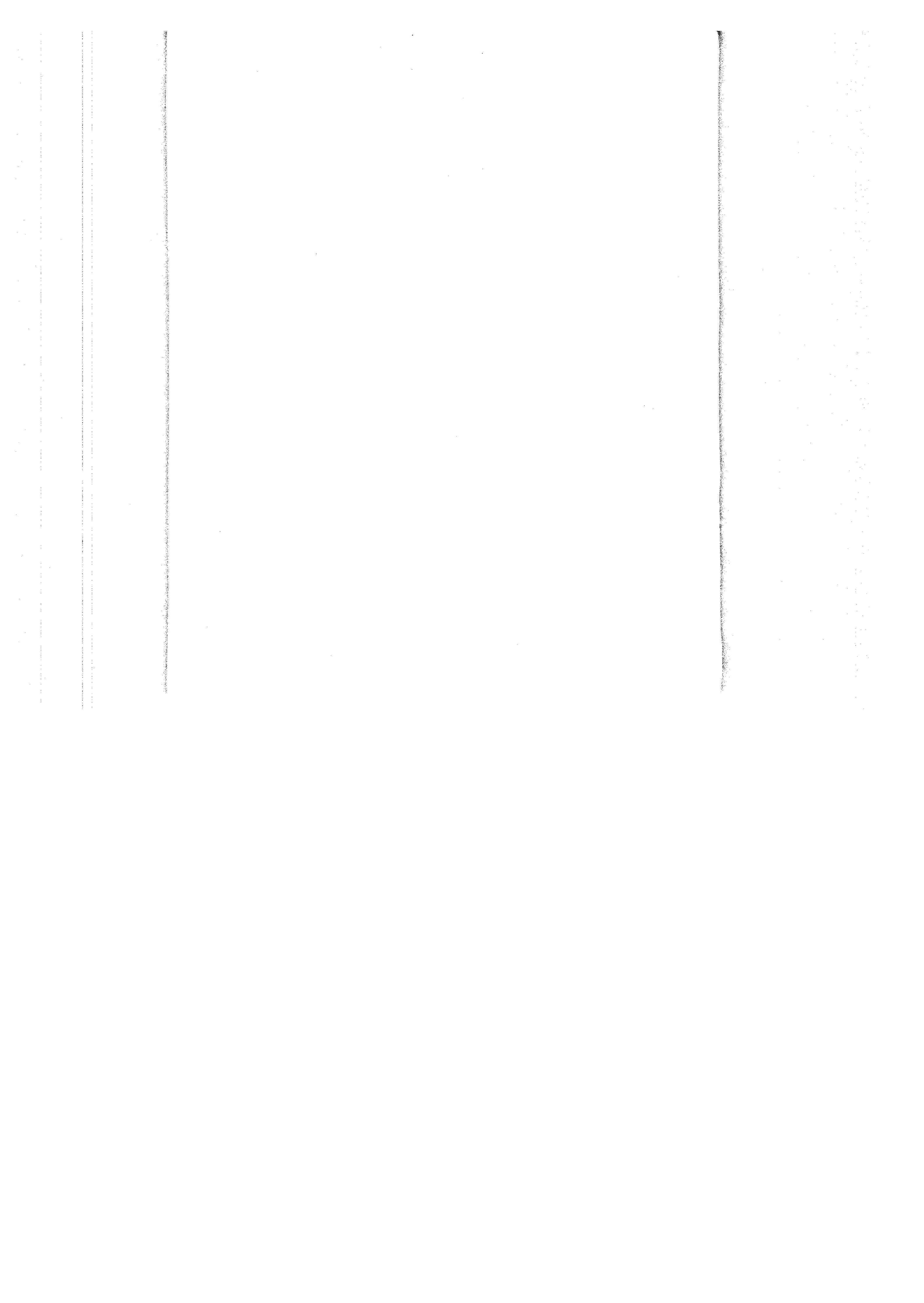
رائحة الـورد

قصص قصيرة

منى ماهر طه

سنابل

للنشر والتوزيع



رائحة الورد



سـنابل للنشـر والتـوزيـع

الإشراف العام:
د. طلعت شاهين

مدير التحرير:
علـــي حامـد

المراسلات:
ص.ب: 22
الحي المتميز - مدينة 6 أكتوبر
جمهورية مصر العربية

Tel.: (+202)8354069
Mob.:0122250787
E-mail:
darsanabil@maktoob.com

الكتاب: رائحـــة الـورد
المؤلف: منى ماهـر طه
الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠٠٤
رقم الإيـــداع: ٢٠٠٤/١٦٠٣٠
الترقيم الدولي: 3-11-3634-977

تصميم الغلاف: علي حامد

إهداء

إلى أبي ..

خلقني الله . . منحني روحاً وعقلاً .

وأنت أعددتني للإبداع .

إلى أمي..

أشياء كثيرة تعلمتها منك وأحتاج إليها :

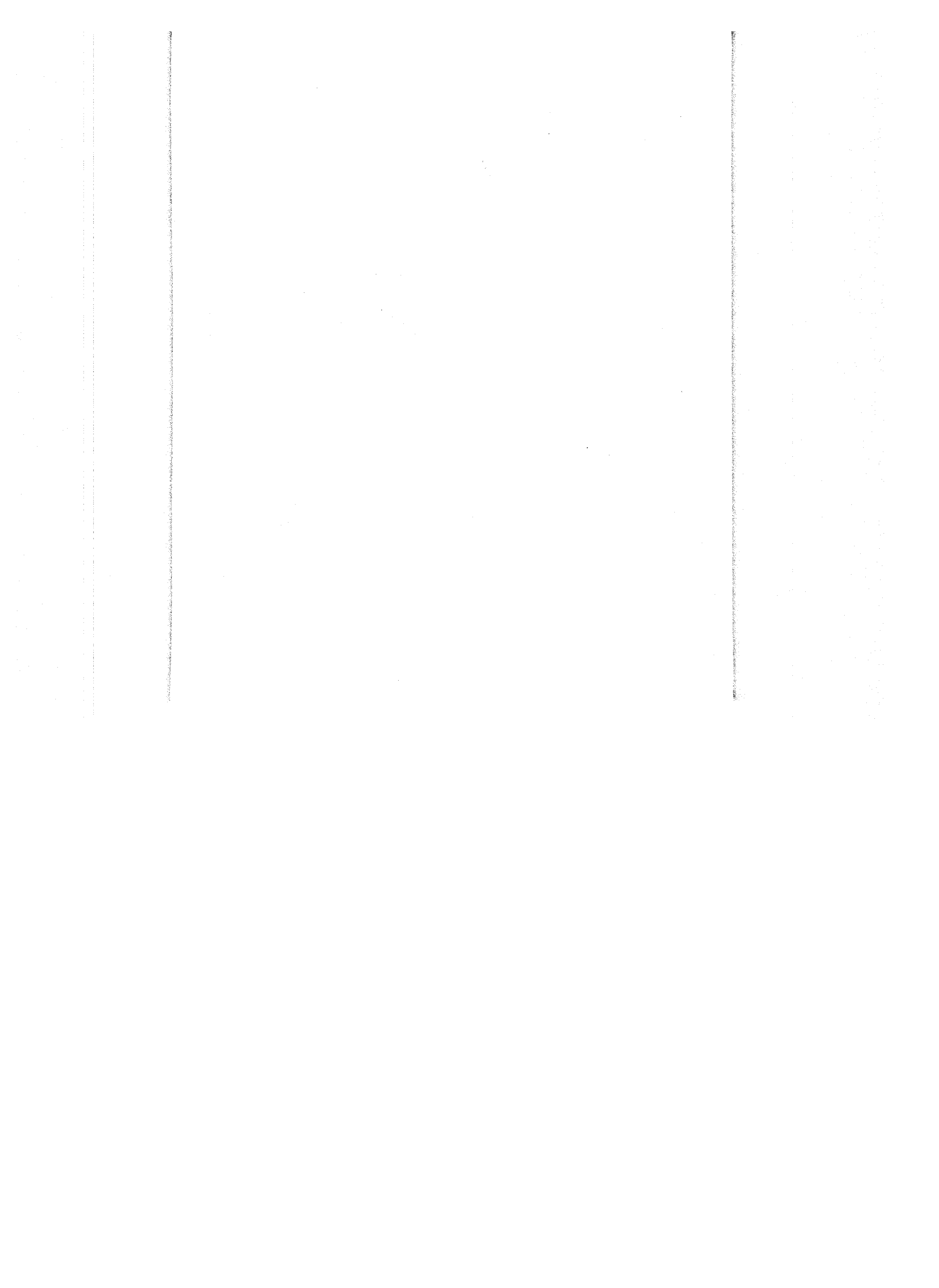
حب الله . . الصبر . . أن أقول " لا " .

إلى إخوتي ..

كنتم لي خير وأوفى الأصدقاء .

إلى أولادي وزوجي..

تحملتموني كثيراً . . محبتي وامتناني .



الـفـازة

وحدي في البيت، ليس هناك أحد على الإطلاق، صعدت السلم من البدروم إلى الطابق الأول، حيث الصالون الرئيسي للبيت، فتحت الحجـرة الرئيسـية، المحراب الرخامي المقدس لسيدتي، لا أستطيع أن أدخلـه بدونها وتحت إشرافها، حيث يضم أهم التحف من جميع أنحاء العالم.

وقفـتُ أمامهـا، كانـت تضـعها علـى طاولـة خشـبية في وسـط الصـالون الرخامـي تمامـاً، فـازة نـادرة، هكذا يطلقون عليها، درت حـولها، وفي الطـواف الأخير وقفت أتأملها، أريد أن أعرف لماذا هي أغلـى مـني؟ هـل تتنفس؟ هل تشعر؟.. هذه الفازة حديث العائلة ومزار الضيوف الأكابر، قصة شرائها واقتنائها حكاية تُحكى.

جلسـتُ أمامهـا على الأرض طبعاً، فمثلي لا تجلس على مقاعد الأكابـر حتى لو كانت وحيدة منفردة لا يراها أحد، جلستُ بعيداً عن السجاد، فلابد أنه نادر مثل الفازة الداكنة، يكفيني شرفاً أنني جلستُ في هذه الغرفة وأمام هذا المزار المقدس، تذكَّرت الحجرة المتواضعة التي كـنت أعيش فيها قبل انتقالي إلى هذا البيت الفخم، تذكرت بالتحديد

الركن الضيق الذي كنت أنام فيه، كان متواضعاً للغاية، ولكنني هناك كنت أشعر بكرامتي.

كم انهالت الكفوف على وجهي مُهدرة كرامتي بشكل قاس أمام الجميع، هؤلاء الذين لا يهتمون إلا بالأشياء النادرة، أمي عيَّرتني بكرامتي، فمثلي عليها أن تنسى كرامتها تماماً، وأن تتذكر أن خلفها كومة لحم يريدون أن يتنفسوا ويعيشوا ويأكلوا، بل إن الأكل لأمثالنا رفاهية مطلقة، أما الكرامة وما على شاكلتها فليست لمثلي، كلها مصطلحات يجب أن أنساها، يجب أن أعتاد الضرب والإهانة، فهذا أمر يومي عادي مثل الأكل والشرب.

أخبرت أبي أنه يُلعن كل يوم بل كل ساعة، ضحك، وكأن الأمر لا يعنيه، أخبرني بأن الشتيمة لا تلتصق، فعلاً لا شيء يلتصق مع أمثالنا، لا شيء نثور لأجله، لا شيء، فنحن لا نمتلك حتى أنفسنا، نحن ملك للجميع.

كانت لي غرفة صغيرة مستقلة في البدروم، تحتويني كل مساء، أذوب فيها مع عرقي وجسدي المنهك، أبكي فيها وحدي، أندب حظي، أسأل الله طريق الرحمة، أتأمل شكلي الشاحب الباهت، وهذا الإيشارب الذي يلف رأسي ويطبق على نافوخي فيحدد قدراته،

وكأنني خُلقت به، فهو لا يبارحني ليل نهار، صار جزءاً من تكويني، لم يكن أحد يراني، أنا وحدي أشارك نفسي كل هذا الكم من الأحاسيس المحبطة، أنظر لنفسي في المرآة المكسورة بغرفتي، فأراني ناقصة، جزء كبير مني ضائع، أحياناً كثيرة أتمنى لو لم أُخلق أصلاً، أي إحباط هذا الذي عشش داخلي وتملكني، لم أجد وسط هذا البشر حضناً يحتويني، حتى أمي كانت تكيل لي الشتائم، كان ردها على آلامي وتوسلاتي صفعة قوية، تركت آثارها على وجهي، لم تهدر كرامتي بشكل كامل فهي أمي، ولكنها أعادت العقل لي، فرأيت السيدة التي أعمل عندها أطيب وأرق مخلوقة، ورأيت البيت الذي أعمل فيه ولا أطيقه قطعة من الجنة، وغرفتي المخنوقة في البدروم ذات هواء عليل، حتى الحذاء المقطوع في قدمي رأيته جديداً يلمع، أدركت أنني مثل البقايا، بقايا الطعام التي يتركونها لآكلها، بقايا الملابس التي أرتديها بعد أن بليت وبطلت موضتها تماماً، بقايا الأحذية التي ألبسها حتى لو لم تكن مقاسي، أنا بقايا إنسانة ضاعت معالمها وتبددت، بهتت ألوانها مثل الإيشارب الذي على رأسي.

تعبتُ، لابد لهذا الجسد المنهك أن يتعب، لابد لهذه الروح أن تُحلّق، لابد لهذا العقل أن يحلم، فأنا رغم كل شيء بشر أرى وأشتهي، لست عديمة الإحساس كما يعتقدون، ولكنني أكتم هذا

وأتناسى أنني بشر ، وأتذكر كل يوم أنني خادمة أو حقيرة كما اعتادت سيدتي أن تناديني ، أو غبية شديدة الغباء كما يظنون .

أمـي أيضاً تعمل خادمة ، ولكنها خادمة منذ زمن طويل ، تدربت علـى قـتل أحاسيسـها ، وفي الـنهاية أجـادت . كـنت أفكـر دومـاً في مصـيري ، فحتـى لـو تمـردت وثـرت ، لو تزوجت سأعود خادمة مرة أخـرى ، هـذا هو قدري ، منه بدأت وإليه أعود ، وبدلاً من أن تذهب الـنقود إلى إخوتـي ستذهب لأولادي ، من الأفضل أن أبقى بلا زوج ، بلا أطفال ، لا أريد مزيداً من القيود .

نظـرت إلى الفـازة ، اقتربـت مـنها ، لمسـتها بـيدي ، تحسسـتها ، أجل . . نلت هذه المكانة ، تساءلت : لماذا هي أغلى مني؟

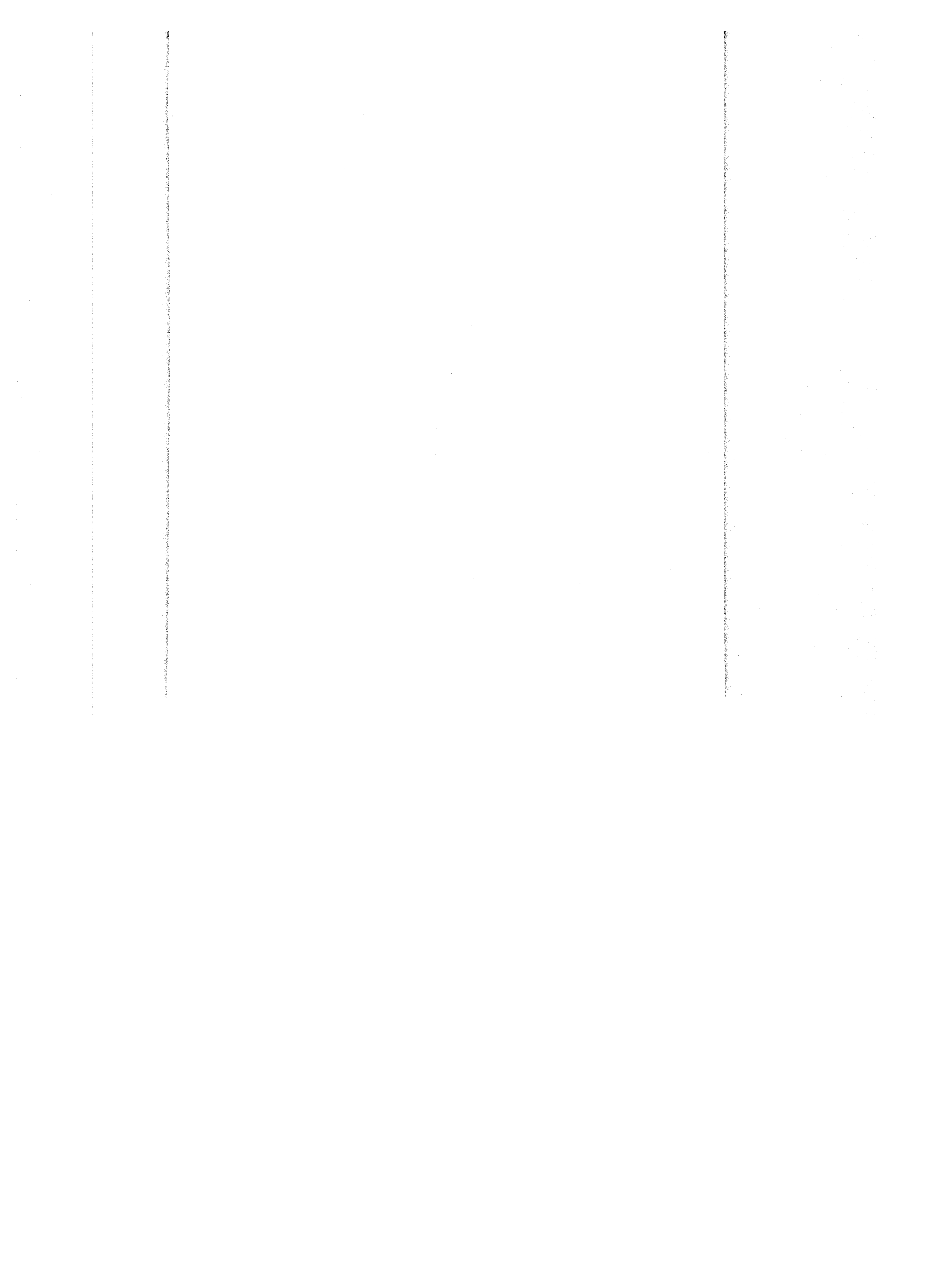
سؤال شغلني طويلاً ، ربما لأن عمرها مئات الأعوام ، ربما قيمتها تكمـن في خلـودها ، عـرفت . . السـر في الخلود ، أنا سأموت والفازة باقـية ، أنـا شيء يُستهلك بمرور الوقت ، لا أعتقد أنني سأعيش مئات السـنين مـثلها . حملـتها بـين يـدي ، كـم أكره لونها الداكن كما أكره سيدتي تماماً ، نفس الكآبة .

ألقيـتها علـى الأرض الـرخامية ، تهشـمت تمامـاً ، تحولت آلاف الجنـيهات إلى قطـع صـغيرة ، شـعرت بالسـعادة ، حطمت شيئاً أغلى

مني، لقد صارت لا تساوي شيئاً بينما أنا باقية، لقد صرتُ الآن أغلى منها، فأنا دوماً أغلى من البقايا.

أعرف أن قلب سيدتي سينفطر عليها، وسيتحول إلى أشلاء تشبه هذه القطع الصغيرة، لا يهم، لطالما أهدرت كرامتي وحَوَّلتها لشيء لا قيمة له.

غادرتُ المحراب الرخامي، حملتُ حقيبةً صغيرة فيها بعض البقايا، لست لصة ولن أكون. غادرت المنزل، هذه المرة بلا عودة، لن أعود لأحد، لقد أعطتني أمي درساً قاسياً، علمتني أنني بلا كرامة، ولو كان الثمن أن أضحي بكرامتي، فلابد أن يكون العائد مجزياً يستحق التضحية. لم أكن أعرف طريقاً واضحاً، ولكنني سعيدة، شعرتُ بالحرية، فأنا لن أُصفع على وجهي بعد اليوم، لن أقبل بهذا مرة أخرى.



هوية امرأة (*)

لا بـد مـن الـنهاية، مـن قـرار حاسـم لإنهـاء هذه الحياة. كنت مشـغولة الفكـر، شـاردة، وأنـا أقـود سـيارتي في اتجاه بيت الأسرة. الأفكـار تلاحقـني، تتحدث بصوت عال، القرار ليس سهلاً، لم يكن هناك حل آخر، فالوعود لا تُغيِّر شيئاً، كلّها تنتهي نهاية واحدة، إنها مضيعة للوقت وفخ لاستمرار الحياة بلا داع.

كـان أنانـياً، أراد أن يكون محور الحياة وأن أدور في فلكه، أخبرته دومـاً أنني امرأة لا تتجزأ، إما أن يقبلني كما أنا، وإما أن يتركني كما أحـبني وأحببـته، تَدخَّل في كـل شـيء في حياتـي؛ عملـي، أكلـي، أصـدقائي، ملابسـي، تسريحة شعري، الموسيقى التي أحبها، الألوان التي أعشقها، بل إنه كان يكره أقرب الألوان إلى قلبي، بدأت أتجاهله كنوع من الهروب، كان يحاول تهميشي، وحياة الهامش لا تستهويني، لست امرأة مسيطرة، أبداً، لكنني صاحبة قرار.

بـدأت الأشـياء تفقد ألوانها ومعالمها، تسربت البرودة إلى حياتنا،

(*) حصلت على الجائزة الأولى من جمعية الكاتبات المصريات للعام ٢٠٠٣م.

فقدنا دفء الحب، كانت بداية النهاية، لم يعد بيننا قاسم مشترك، تساءلت: لماذا تحاول أن تلغيني ؟

بكيت، لم أتمالك نفسي هذه المرة، عندما شاهد دموعي تعجب، ردد ساخراً: أخيراً بكى تمثال الجليد ! . . . . . تحسست جسدي، شعرت ببرودته، أكد لي أنني السبب الأول والأخير في تدهور هذه العلاقة، لم أتقبل اللوم، كان يقلب الحقائق رأساً على عقب، لاحقته بنظراتي، التقت عيوننا، كانت باردة، أدركت أن الحب الكبير الذي كان يسكننا قد رحل، رحل بلا عودة، ألقيت عليه اللوم، أنت وحدك من دفعني بل دفعنا نحو هذا، أنت من بدأ النهاية، تلاشت الأشياء المشتركة بيننا، صرنا كائنين بعيدين كل البعد عن الآخر، نتخاطب بالكاد، نفضل دوماً أن نكون في صحبة الأصدقاء، أما نحن معاً، فنجلس بلا حوار وبلا اتصال.

لم أعد أعرف كيف يراني، جسداً بلا روح، يمكن تغيير ملامحه وهويته، أم روحاً وعقلاً وكياناً وفكراً محاطاً بجسد. إن الحياة معه عطاء من جانب واحد، والعطاء المتبادل في الحب سر البقاء، لقد فقدنا أغلى ما يربطنا معاً، صار استمرار الحياة مسرحية كوميدية مضحكة، يصفق لها الناس وهم لا يعرفون أن الأبطال يبكون حتى الثمالة من شدة الألم.

نزعت القيد الذهبي عن إصبعي، ألقيت به أمامه، رن صوته على الطاولـة الزجاجية الأنيقة، سمعت صوت الرنين كأنه ضحكات عالية تسـخر مـن عمري الذي مضى. غادرت المنزل، لم يلحق بي، يعرف أن قراراتي حاسمة لا تتغير بسهولة.

كـان الطريق طويلاً، سلكت أبعد الطرق وأكثرها ازدحاماً، كان صوت الكاسيت عالياً، لكنني لا أسمع شيئاً، فالصوت بلا كلمات، والكلمات بلا معنى، والنغم ممل رتيب.

نظـرت إلى نفسـي في المـرآة، توسـلـت إلـيها أن لا تبكي، عدلت شعري، تذكرت صديقتي الغالية حتى أسلي نفسي، جمع الحب الكبير بيـنها وبـين زوجهـا، أنجـبت ولـداً، كان لزوجها صديقة في العمل، "ليـز" مـا زلـت أذكرها، كانت تزورهما دوماً، وصديقتي الغالية لا تمانـع مـن هـذه الزيارات المتكررة، فثقتها في نفسها وزوجها تصل إلى أبعـد الحـدود، في عيد ميلاد ابن صديقتي الغالية، أهدت إليه "ليز" كلـباً غالي الثمن من نوع نادر، تعلق به الصغير كثيراً، أصبح الكلب يلازمـه في كل مكان يذهب إليه، وتناست صديقتي أن كل شيء لابد لـه مـن مقابـل، خصوصاً الهدايا النادرة، ولقد حصلت "ليز" على المقابـل، أخـذت الزوج ورحلت، وبمنتهى البساطة حصلت صديقتي

علـى الطلاق والكلب النادر ، كانت صديقتي تكره الكلب ، فرغم أنه لا ذنب له ، إلا أنه كان يُذكِّرها بليز .

رحل الزوج ، ومن أجل عيون الصغير ، بقى لليز أذيال في البيت . بعـد فـترة تـزوجت صديقتي الغالية ، وصار الصغير يحمل الكلب بين ذراعيه ، مرة في بيت أمه ، وتارة في بيت " ليز " .

نظـرتُ إلى المـرآة مـرة أخرى ، تأملت ملامحي ، لم أخسر كثيراً ، خسـرت رجـلاً كـل مـا قدمه لي طوق ذهبي أنيق وقطعة ماس وشقة فاخـرة ، عطـاء مادي بحت ، يتأرجح بين الصعود والهبوط ، كان لابد لهـذه القـيود أن تنكسـر وتتحطم ، فالمادة لا تأسر عقلاً حراً ولا تمتلك شخصية تتسم بالثبات .

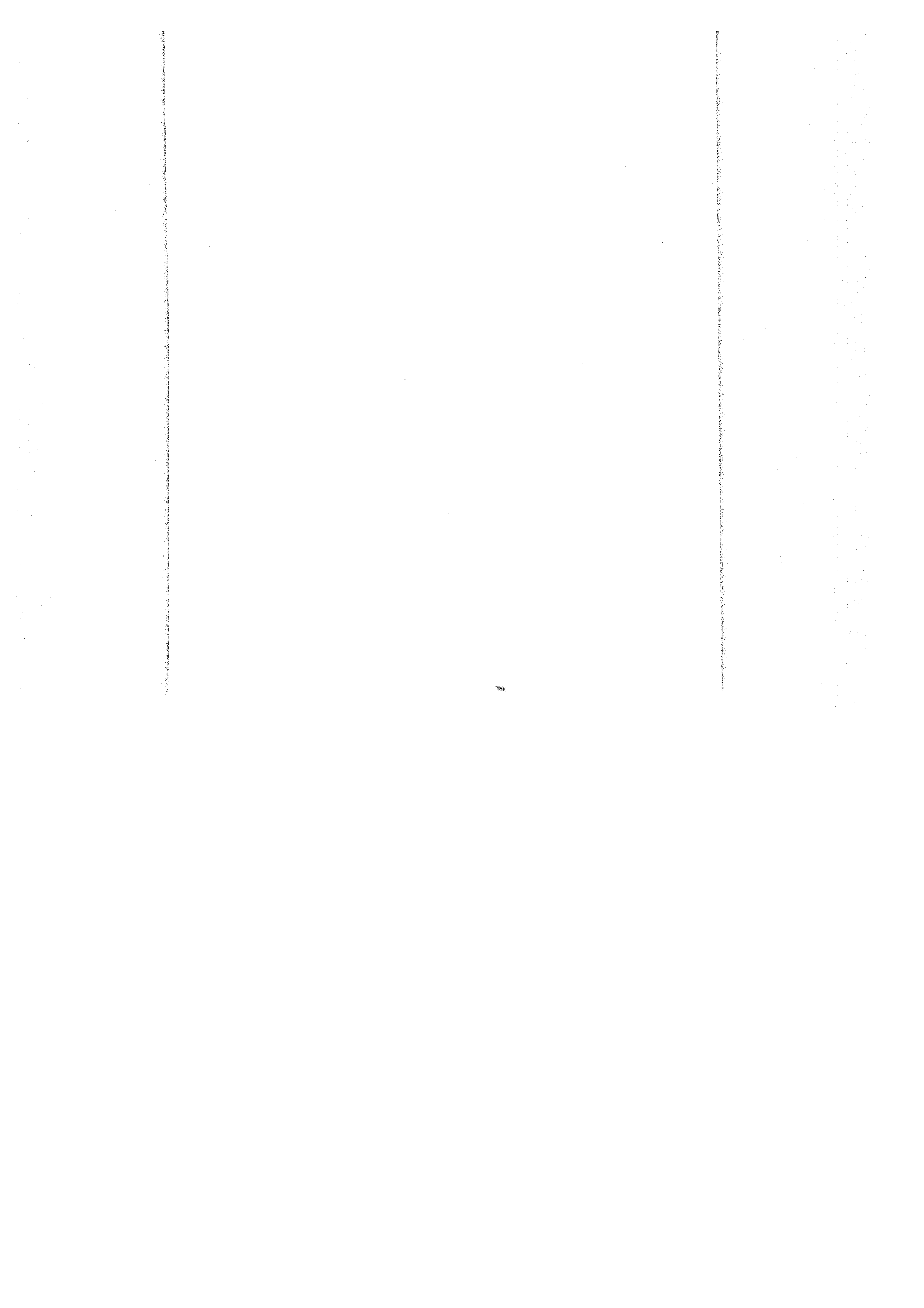
خسـرتُ حـباً أسرني ، ولكنني كسبت نفسي ، استعادت روحي حـريتها الـتي كـادت تُسـلب منها ، خسرت زواجي ، ولكنني كسبت هويتي كامرأة .

عـدتُ إلى بيت أبي وأمي ، كان الجميع يسأل عن تفسير ، فالقرار مفاجئ بالنسبة لهم ، كنتُ متعبة ، طلبت فرصة ، احترموا رغبتي .

دخلـت غـرفتي ، بكيتُ كثيراً ، دموعي لا تريد أن تتوقف ، يجب أن أكـون قـوية متماسـكة ، مُصـرة علـى رأيي ، وأن أُقدِّم أسباباً كافية

ومقنعة، فأنا لا أحب الجدل رغم أنني سألقاه.

اليوم كان قراري وأعرف أنه لابد من رد فعل، عرفت أمراً آخر، أعتقد بأنني لن أقبل في البيت كلباً لا أرغب في وجوده، فأنا ما زلت بلا أطفال.



نبات الظل

غرفة عتيقة بكل ما فيها؛ تصميمها، أخشابها، سجادها العجمي القـديم، سـريرها ذو الأعمدة، مصباحها المعلق في السقف. . عندما أدخل غرفة جدتي أشم عبقاً فريداً قديماً، وأنا عاشقة متيمة بكل ما هو عتيق، قديم في عمر جدتي.

أعشق حكاياتها القديمة، إنها مثل التاريخ تستفيد منه كلما عرفته أكثر وكلما أبحرت فيه، فالقدم يزيد من قيمة الأشياء ويرفع أثمانها.

بعـد رحـيل أبـي ثم أمي، عشتُ مع جدتي، لم يكن لي سواها، وهـي تسـتحق كل الحب، جديرة بالقرب، كانت أمي الفتاة الوحيدة لهـا بالإضـافة إلى ولـدين آخـرين، لم يكونا يزورانها كثيراً، لم تكن تكـترث، قالـت لـي يـوماً: أولادي تشـغلهم همومهم. . وترعاهم زوجـاتهم. . جـذورهم في بـيتي ولكـن امـتدادهم خـارج الـنافذة. . أسقيهم. . أمنحهم الحياة. . ولكنني لا أستفيد بظلهم ولا عطرهم. . الظل يا صغيرتي القريبة للزوجة ولأولادهم.

حكاياتهـا لا تنتهـي، تـاريخ لا ينقطع، حدثتني كثيراً عن أختها الوحيدة الراحلة، وكيف عاندت قوانين الميراث زوجة أبيها الراحل.

قالت: تزوجت أختي مرتين . . في المرة الأولى رحل الزوج ـ فجأة ـ وترك خلفه أختي أرملة وحيدة بلا أطفال . . وثروة جيدة . . تزوجت للمرة الثانية طمعاً في أمومة تمنحها الخلود . . لم يتحقق لها ما أرادت ـ رحلت فجأة ـ وتركت خلفها زوجاً وحيداً بلا أطفال، وثروة جيدة . . حسب قوانين الميراث ذهبت الثروة كلها لي ولزوجها مناصفة . . أما شقيقي الوحيد من أبي الراحل . . فلم يأخذ شيئاً .

سكتت وكأنها تتذكر أمراً ما . .

: تزوج أبي قبل موته من فتاة في عمر الربيع . . اجتمع الربيع بالخريف من أجل عيون طفل ذكر . . رحل الخريف قبل أن يرى حلمه النور . . وعندما أدركت زوجة أبي أن طفلها الذكر لن يرث شيئاً من ثروة أختي الراحلة . . تحولت إلى رياح عاتية . . حملت الحلم الرضيع ورحلت . . اختفتْ . . ما زال أخي في عيني طفلاً رضيعاً .

سكتت لحظة، ابتسمت: لو أنجبت زوجة أبي الحسناء فتاة لحصدت السدس من الثروة . . البنات في عائلتنا دائماً يكسبن .

كانت جدتي تعتني بنبات ظل صغير لا يغادر غرفتها، تحبه كثيراً، تمنحه وقتها، تحكي له، تبوح بأسرارها، فهو في رأي جدتي روح حية، يشعر، يفرح ويحزن، يزهر ويذبل . وضعته قريباً من

سريرها، قالت لي يوماً: هذا النبات طويل العمر.. معطاء.. كل ما يحتاج إليه القليل من الماء فيمنح عطراً يملأ المكان.

رحلت جدتي الغالية وتركتني، قبل أن ترحل أوصتني كثيراً بنبات الظل، كلماتها لا أنساها: اهتمي بالنبات كثيراً.. إياك أن تفرطي فيه مهما حدث.. فلقد كان سري.. امنحيه أسرارك.. لا تخافي.. فهو وفي مثلك تماماً.. كتوم.. إذا منحك سراً، إياك أن تبوحي به.

بعد رحيلها باع أولادها كل شيء؛ البيت الكبير، أثاث غرفتها العتيق، سجادها العجمي القديم، مجوهراتها النادرة، ذكرياتها الغالية - باعوها - باعوا جدتي.

أغلقوا بابها إلى الأبد، ذهبت هي وبقي الأحياء يتحكمون في كل ما يخص الأموات، بل يمسحون أحياناً ما تركوه من ذكرى.

عدت إلى شقة أبي وأمي، كل شيء كما هو، لم أغير شيئاً فأنا أحترم الذكرى، وأعرف أن هذا البيت عاش فيه الحب أعواماً طويلة، لم أنسهم يوماً.

أضفت إلى البيت بعضاً من ذكريات الجدة، حملت معي نبات الظل الغالي، رائحة الجدة وعطرها الباقي، حملت صورها، قطعاً من

أثاثهـا القديم يحمل العتاقة التي أعشقها، ما حصلت عليه كان بالنسبة لي كل شيء.

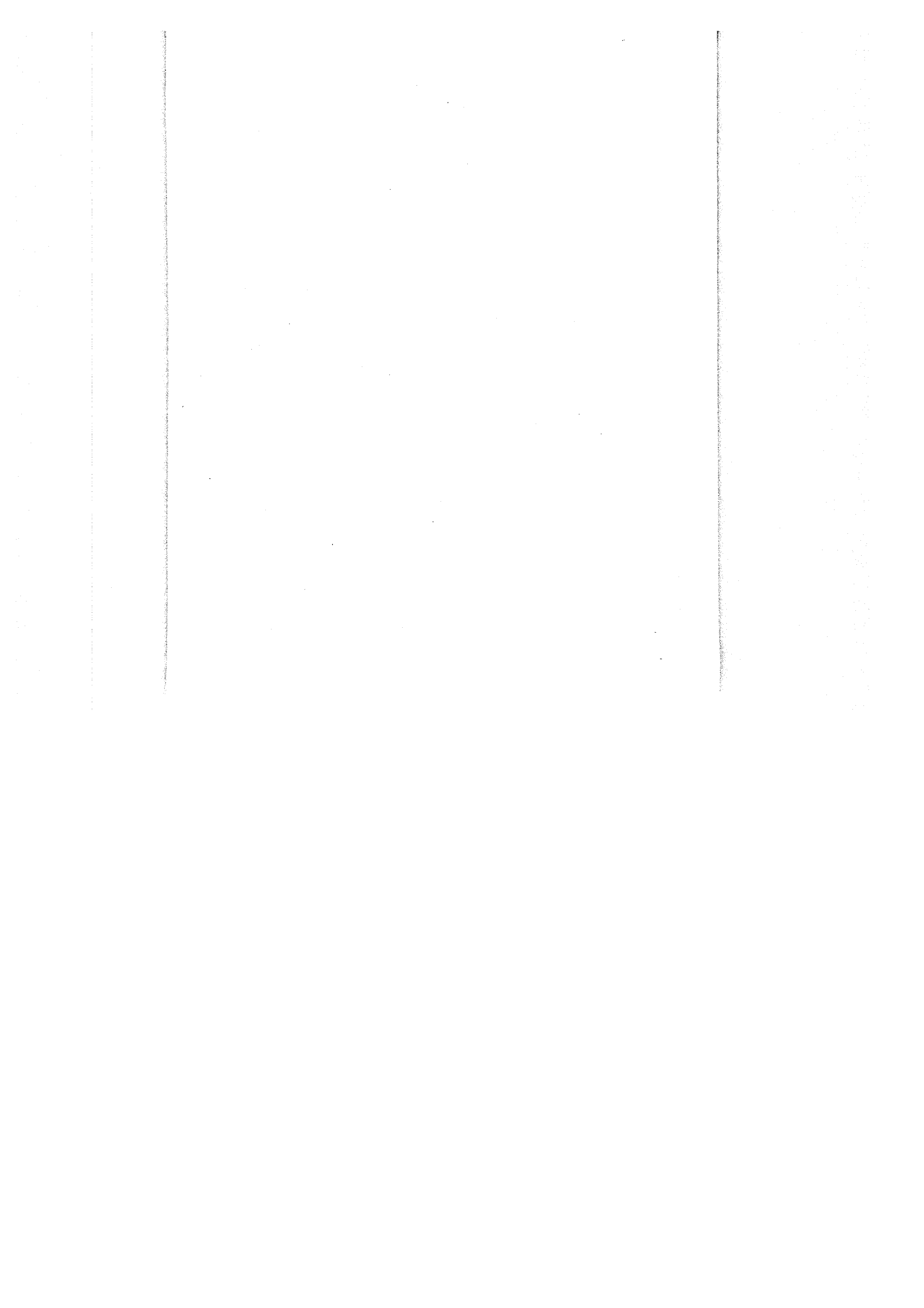
علّقت الصور على الحائط، تأملتها، كم هي جميلة، لن أحركها أبداً، ستبقين يا جدتي الحبيبة، من يحترم الذكريات لابد أن يلتقي بمن يحترم ذكراه.

عملي مهندسة ديكور يستغرق وقتي صباحاً، والليل ملك للذكريات. وضعت النبات إلى جوار سريري، وجدتني أبوح له كل ليلة، يحمل أسراري، يحمل أحزاني وحنيني إلى جدتي، أتحسس أوراقه، أقبّلها وكأنني أقبّل يد جدتي، فلقد لامست أصابعها هذه الأوراق من قبل. رغم قسوة الذكريات أحياناً، كان ينتظرني، تمنحه آلامك، فيمنحك عطراً هادئاً رائعاً يملأ المكان، دائماً يمنح الأفضل، إنه الشيء الوحيد الوفي الباقي من الجدة، أخذوا كل شيء، وتركوا أغلى شيء، إنهم لا يقدرون الوفاء.

ما هذا! ورقة صفراء! علامة الحزن ورمز الرحيل، لابد أنني أثقلت عليك، لو كنت تبوح لقلت الكثير، لابد أن أنقله إلى وعاء أكبر لكي أتيح للجذور المزيد من الامتداد، اشتريت وعاءً جميلاً يليق به، أخرجته بحرص شديد، وبينما أنا أنقله من مكانه، اصطدمت أصابعي بشيء صلب، ما هذا؟!

أمسكته بين يدي وأنا لا أصدق ! إنه هو، خاتم جدتي الماسي، حجر كبير عتيق من الماس الحر، كم كنت أعشق هذا الخاتم، أخبرتنا الجدة إنها باعته، ولكنها أهدته لنبات الظل، هذا النبات الذي لم يهتم به أحد سواي، لقد باح النبات بسر، أعطته الجدة شيئاً فرده لي، أدرك أنني أحبه كما أحبته جدتي من قبل، كان كريماً معي، أهديته حباً صادقاً، فأهداني الماس، احتفظ بالماس لقلب وفي.

قَبَّلت أوراقه، وشكرت هديته، أدركت أنه يشعر بي ويحدثني همساً، سمعته، شكراً يا نبات الظل، منحتني سراً، وكما أوصتني جدتي؛ لن أبوح بأسرارك أبداً.



ورق برائحة الورد

وقف يستقبل العزاء بابتسامة باردة منكسرة، هذا هو تعبيره عن الألم، كان الجميع في السرادق الفخم يتغامزون من حوله: هل رأيتم ابتسامته! لقد أصبح بارداً.. غلفته أوروبا بجليدها الأبيض.. لا يشعر بالحزن على والده.. لقد علمته الغربة القسوة البالغة.

شعر بالتعب، جلس، طلب من الجرسون الذي يتحرك بسرعة مذهلة في السرادق كوباً من الليمون البارد، انصرف الجرسون متعجباً! أسند رأسه إلى الخلف، أغمض عينيه، استدعى النوم ولو للحظات برجاء العاشق الولهان، ولكن هيهات أن ينام وسط هذا الزحام الهائل، رحل النوم ولكنه لم يفتح عينيه، أطلق لذاكرته العنان وكأنه لم يجلس وحيداً منفرداً منذ زمن طويل، موت والده المفاجئ أثار في نفسه الكثير من الشجن، كان متعلقاً به رغم أنه عانى كثيراً من انفصاله عن والدته وهو في العاشرة من عمره، قال له والده يومها: عندما تكبر ستعرف لماذا هجرت البيت وهجرتك.. ستعرف كم أعاني.. لابد أن يأتي اليوم الذي تدرك فيه الحقائق.

تذكـر والدتـه، امـرأة قوية وجميلة، سيدة أعمال من طراز نادر، اسـتطاعت بأمـوال والـده أن تصـنع مـن محـل الأزهـار الـذي تمتلكه إمـبراطورية لهـا فـروعها في كل مكان، كانت تعشق طموحها الجامح أكثر من عشقها لأي شيء آخر، وكان لها ما أرادت دوماً.

عـندما كـان في بدايـة الشباب، كان يقف معها في محل أزهارها، علمـه الـتعامل مـع الأزهار الرقة والنعومة، تعلم فن الابتسامة، فمن يعـرف الأزهـار لا يعـرف الحـزن، لا تفارقـه الابتسـامة طوال اليوم، فالزهرة كائن تبتسم حين تلمسه، رغم أنه يموت بين يديك.

عـالم والدتـه كـان عالماً مُحاطاً بالمجاملات والابتسامات الملونة، عالمـاً ورديـاً بلـون أزهارها، كانـت امرأة مسيطرة، حين كبر أدرك أن هذه السيطرة كانت سبب الانفصال.

تـرك والـده البـيت وأقـام في مكـان آخر، لم يشغل والدته طلب الطـلاق، انغمسـت في عالمهـا السـاحر، أحاطـت نفسـها بالأزهـار والخضرة، عزلها هذا السياج الوردي تماماً عن العالم الآخر، ودون أن تشـعر عـزلها حتـى عـن وحيدها، كان محاطاً بها، ولكن الاهتمام لا يعني أبداً ـ بالنسبة له ـ الحب.

كانـت أمـه تعاملـه بـرقة متناهية، وكأنه زهرة صغيرة تخاف على

أوراقها من الهواء، حين قرر له والده أن يدرس هندسة الميكانيكا لكي يدير مصانعه، رفضت أمه، قالت بتحدٍ وهي تشعل سيجارتها برقة بالغة: لا . . إنها كلية عملية للغاية . . ستقتل في ابني الرقيق روح الإبداع.

ثار والده، هدد بأنه لن ينفق عليه إلا إذا درس الهندسة، عارضته الأم، كانت تعشق المعارضة، وجهت كلامها إلى الأب وفي يدها سيجارتها التي لا تفارقها: دع الولد يفعل ما يحب . . لا تمل عليه أفكارك الحمقاء . . لا أريده أن يكون مثلك . . حياتك أوراق . لها تحيا ومن أجلها وجدت . . أريد أن تعرف أمراً مهماً . . ما بينك وبين وحيدك جسر من ورق . . وحيدك رجل من ورق أخضر ولكن ورق برائحة الورد.

ما زال يذكر كلمات أبيه لها: هذا الورق صنع لك أحلامك . . منحتك أوراقي لأنني أحببتك . . وكما كرهتك كرهت كل النساء . . وكما صنعت أحلامك سأصنع أحلامي.

استجاب لوالده رغم كرهه الشديد للهندسة وفروعها، استجاب له فقط لأنه يحبه، لأنه أراد أن يحقق له حلمه، سافر إلى أمريكا لدراسة الهندسة، حاول جاهداً أن يحبها، ولكنه فشل في تقبلها، كان لا يتقبل

إلا ما يحب، درس الإخراج السينمائي، كان يرى في هذا العالم سحراً لا يُقاوم، انتقل من عالم الأوراق إلى حياة السينما الصاخبة، كان عالماً جديداً مختلفاً ولكنه كان يحبه، بعد فترة، أصبح جزءاً من هذا العالم الذي عاشه بكل تناقضاته، تعلم حياة الأضواء الصاخبة، تعلم أن يتصنع في أحاسيسه، أن يُظهر عكس ما يبطن، أن يضحك حين يشعر بالألم، وأن يبكي وقت الفرح، عاش عكس حقيقته، ورغم انغماسه في هذا العالم، فإن ابتسامة الأزهار لم تفارق وجهه أبداً.

اشتعل قلبه بالحب أكثر من مرة ولكنه تزوج مرة واحدة، تزوج من صاحبة أجمل ابتسامة رآها على الإطلاق، شعر إنها الشيء الوحيد الصادق في حياته الزائفة، تزوجها رغم معارضة والدته، التي كانت تريد له زواجاً يضيف إليها أزهاراً، ويضيف إلى أبيه أوراقاً، لكنه أصر عليها.

في بداية الطريق أنجبت له " وحيد "، أصر على هذا الاسم، رأى أنه يُعَبِّر عنه، في منتصف الطريق رآها امرأة مُصرة على رأيها، مسيطرة، مثل أمه تماماً، رغم أنها في واقع الأمر كانت بعيدة كل البعد عن أمه، ولكنه لم يستطع أن يمنع هذا الإحساس من السيطرة عليه، وكان الانفصال في النهاية، ما زال يتذكر كلماتها الأخيرة: أنت مثل

ورقـة في مهب الريح . . تتأثر بكل شيء حولك . . ليس لك شخصية محـددة . . أو طـريق ثابت . . كل يوم في مكان مختلف . . بل كل لحظة في موقع آخر . . لم تكن معي أبداً .

تـألم كـثيراً مـن الطلاق ، تألم من أجل وحيده ، لا يريد له المصير المشـتت نفسـه الـذي عاشـه ، بدأ يشعر أنه مُسير لا مُخير ، حين أصر علـى الطـلاق لم يكـن يـرغب حقاً في حدوثه ، ولكنه حدث ، وحين حـدث أرسلت إليه أمه أزهاراً ، وأرسل إليه والده أموالاً لكي تساعده على الاستجمام .

انخـرط في عمله ، أنتج فيلماً كبيراً تكلف الكثير ، حقق له النجاح والشـهرة ، فتح له الأبواب التي كان يحلم بها ، والتي من أجلها اقتحم هـذا العـالم السـاحر ، لقـد حقـق لـه هـذا الـنجاح المـزيد من النقود والأزهار ، نجح في عمله لأنه تعلم من أمه وأبيه أن يعشق عمله إلى حد العـبادة ، لكـنه فشل في حياته الخاصة ، لأنه لم يتعلم أن تكون له حياة خاصة يحترمها ، عاش مشتتاً بين أم تعشق نفسها وأب رافض لها رغم أنه يحبها ، لم يعرف معنى الاستقرار ، ولذلك لم يمنحه لوحيده .

لم يكـرر تجـربة الـزواج ، كان يشعر بأن الفشل سيلازمه دوماً في هـذه التجـربة بالذات ، أدرك تماماً أنه لن ينجح يوماً في تكوين أسرة ،

لن يعطي ما فقده طوال رحلته .

حـاول أن يـبحث عـن طـريق له ملامح أخرى ، شعر بالاشتياق لأبـيه ، كـان يـرى أنه يسير الخطوات نفسها ولكن في زمن آخر ، حين قرر العودة لرؤية أبيه كان قد رحل .

فـتح عينـيه ، مـا زال في السـرادق الفخـم ، ينتظر كوب الليمون البارد .

كعب عالٍ

تلقيت الدعوة، كان حفلاً مهماً لابد من حضوره، قرأت الدعوة الأنيقة، إنها موجهة لي ولزوجي، شعرت بسعادة، كم تمنيت أن يكون معي، أن ألتقي معه - يدي في يده - بكل زملاء العمل الذين لا يعرفهم، ولم يلتق بهم من قبل.

أخبرته بأمر الحفل، وبأنني أتمنى وجوده، وعدني بالحضور، وفي الموعد الذي حددته له حضر بالفعل.

كان الحفل في دار الأوبرا، بالنسبة لي كانت دعوة عمل ولكنها من نوع مختلف، فأنا لن أرتدي ملابسي المعتادة التي أرتديها كل يوم في العمل، أريد أن أكون مختلفة، أن يراني الجميع بصورة أخرى، صورة لم يعتدها أحد.

نظرت طويلاً في مرآتي، رفعت شعري بشكل لائق، مكياجي زائد بعض الشيء، ملابسي تناسب تماماً جو الحفل وتناسب شخصيتي المتحفظة، وضعت عطراً مميزاً.. يناسبني.

خرجت إليه، كان ينتظرني، لم ألفت انتباهه، لم يعلق على مظهري، لم أرني في عينيه شيئاً مختلفاً، غادرنا البيت، كان الطريق

طـويلاً، صـوت الكاسـيت لا يعلـو علـيه صـوت آخـر، حاولت أن أتكلـم، أن أخلـق حـواراً مـا، ولكـن إجابـته كانت مختصرة للغاية، اغتالت كل محاولاتي.

وصـلنا متأخـرين، غادرنـا السيارة، كان يسير بسرعة، حاولت اللحاق به، الكعب العالي الذي لم أعتده كان عائقاً، قلل من سرعتي وثبات خطوتي، فكان هو الأسرع.

شـعرت بـأنني أسـير وحدي، وأن كلا منا يخطو في الطريق نفسه ولكن بعيداً عن الآخر.

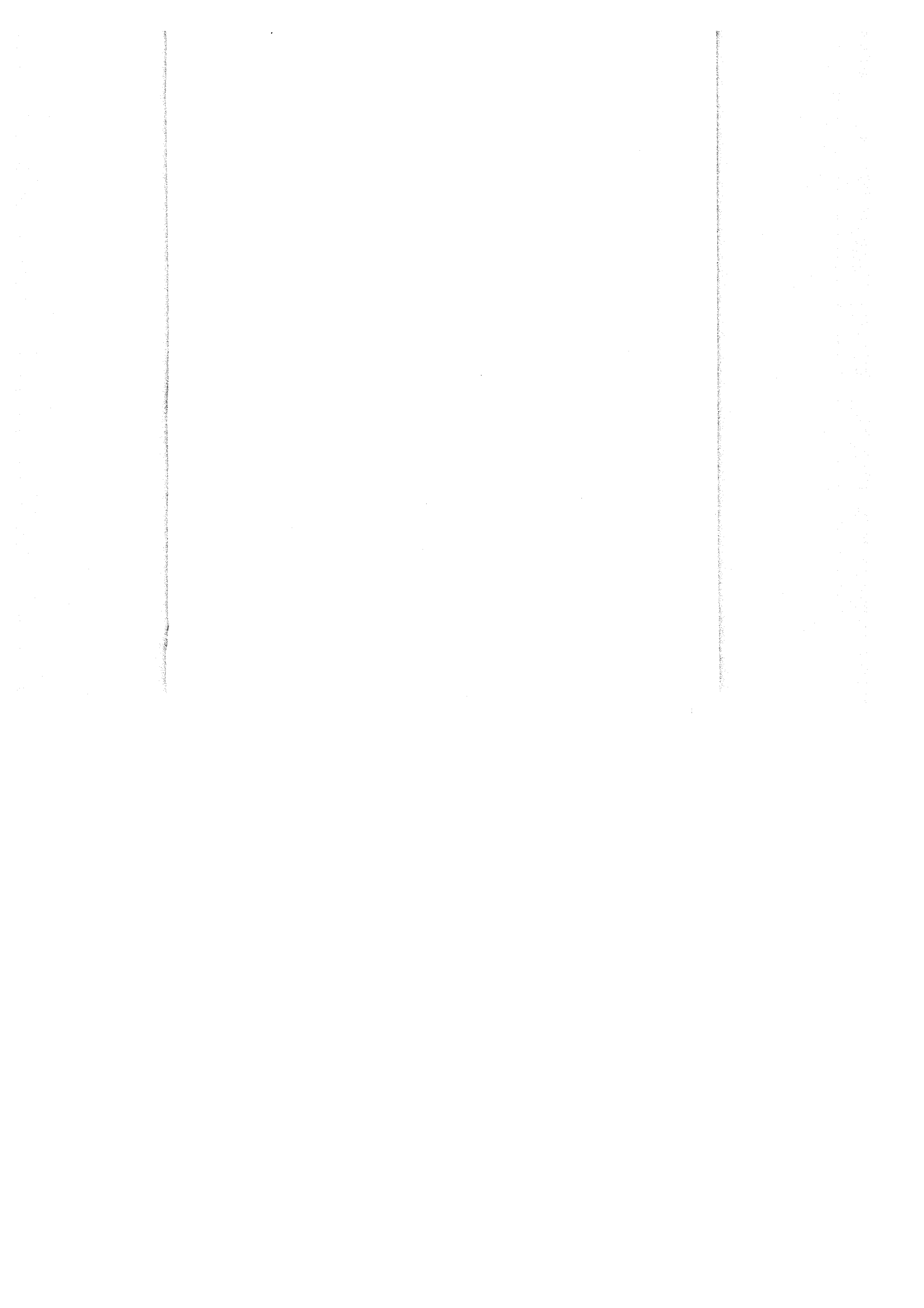
كانـت الحفلـة قـد بدأت، دخلت دون أن يراني أحد، اختار هو مكاناً بعيداً لكي نجلس فيه، رفض اقتراحي الهامس أن نجلس قريباً من المسـرح، جلسـت إلى جـواره، حاولـت أن أضـع سـاقاً علـى ساق ـ كعادتـي ـ ولكـن المسـاحة كانـت ضـيقة للغاية، استدرت قليلاً حتى أتمكـن مـن الجلـوس في الوضـع الذي اعتدته، وأخيراً سمعت صوته واضحاً بعيداً عن الإشارات والهمهمة: لماذا تديرين ظهرك لي؟

تعجـبت. . ! حاولـت أن أبـرر له، أن أخبره أنني بهذه الطريقة سـأتمكن مـن رؤية المسرح بوضوح، أدار وجهه دون أن يوجه لي كلمة أخرى.

انتهى الحفل سريعاً، نهض، أصر على أن نغادر فوراً قبل الزحام، أخبرته أنني لم أر أحداً من الزملاء بعد، وأنني أرغب في أن ألتقي بهم لإثبات وجودي وتأكيد حضوري إلى هذا الحفل، ولكنه رفض أن ألتقي بأحد، رفض أن يشاركني شيئاً خاصاً بي.

غادرت معه، أبديت عدم اهتمامي رغم ضيقي الشديد منه، لا أريده أن يكسب جولة على حساب مشاعري، كان يتحرك بسرعة، السرعة نفسها التي جاء بها، حاولت اللحاق به، ولكنها المسافة نفسها، البعد نفسه الذي حاولت أن ألغيه، لم يترك لي مساحة للنقاش ولا حتى فرصة للحاق به، سار بعيداً وبسرعة، لم أكن أسمع وأنا أخطو سريعاً نحوه سوى دقات الكعب العالي، التي تُعَبِّر عن سرعتي وفشلي في اللحاق به.

كان طريق العودة طويلاً، وصوت الكاسيت لا يعلو عليه صوت آخر، حاولت أن أتكلم، ولكن دموعي كانت أسرع من كلماتي؛ ففضّلت السكوت.



في الخامسة تماماً

كنا نجلس معاً في مكاننا المعتاد، نراقب الوجوه المتغيرة من حولنا، نسترجع الذكريات؛ الدراسة، صداقة الجامعة، الزواج، الأمومة، وأخيراً الطلاق، أنا ما زلت زوجة، أما هي فلا، حصلت على الطلاق حديثاً، ما زالت في العدة.

انقطعت ابتسامتها فجأة، شاهدت بصرها يتجه نحو شيء ما ويتوقف، بدأت أشعر بها ترتبك، تتحرك بعصبية ملحوظة، ترتجف بخفة شديدة، نظرت اتجاه عينيها، كان هو، زوجها السابق بصحبة امرأة أخرى، عندما رآها غادر المكان، رفض البقاء.

حاولت أن أتجاهل الموقف، ولكن من الصعب تجاهل ارتباكها وعينها التي تبدل الضحك فيها إلى غيوم توشك أن تمطر، تعرف جيداً أنني رأيته، وتدرك محاولاتي الفاشلة في تجاهل الموقف، خرجت كلماتها حزينة سوداء، أخبرتني عن قسوة الإحساس الذي يسكنها، إحساس رهيب بالفشل، بأنه رفضها، رفض وجودها في حياته، وما زال يرفض، عندما رآها غادر مسرعاً، رفض أن يبقى معها في المكان

نفسه، حتى ولو عن بعد، حاولت أن أهون الأمور، أخبرتها أن الطلاق كان قراراً مشتركاً، كلاهما سعى له، كلاهما كان يريده، قاطعتني، قالت سريعاً وبلا تفكير:

ـ لم يكن قراراً مشتركاً.. كان قراره هو.. أنا لم أتعلم أن أصنع قراراتي أبداً.. لم أتعلم أن أرهق عقلي بالتفكير.. تعودت منذ الصغر أن تكون طلباتي مُجابة.. لم تكن في حياتي أي معاناة.. معاناتي أن يقول لي أحدهم: لا.. لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة.. لم يلعب الرفض أي دور في حياتي. كل شيء كان سهلاً.. لم أدرك أن هذه السهولة ستقضي على حياتي يوماً ما.. المعاناة لم تعرف الطريق لي إطلاقاً.. دراسة موفقة.. جامعة كنت أرغب في دخولها.. زواج مرموق.. ولد وبنت.. لم تترك لي الدنيا شيئاً أتمناه أو شيئاً أسعى إليه..

حياة بلا معاناة لا تصنع بشراً.. أنا لا أتحدث عن المعاناة الشديدة التي تقهر النفس، ولكنني أتحدث عن المعاناة التي تخلقنا. المعاناة التي تجعلنا نتمنى ونتعلم قيمة الأحلام، وكيف ننالها.. لم أشعر يوماً أن زوجي يعاني في حياته معي. لم أشعر أن هناك خطأ ما يجب إصلاحه. لم ألمس أنني مملة. وأن مللي يجعلني أفقد من حولي..

لم ألاحظ اختفاء الأصدقاء . . لم أشعر بهم . . اعتقدت أن ظهورهم واختفاءهم مجرد صدفة . . حتى أولادي كانوا يشعرون أنني لا أمنحهم ما يبحثون عنه . . كنت زوجة عادية للغاية . . وأماً تقليدية جداً في زمن غير تقليدي . . بمرور الوقت تصيبنا الأشياء الثابتة بالملل . . وأنا أرفض التغيير . .

أماكن الأشياء في بيتي وفي حياتي لا تتغير أبداً . . أنا غير مؤثرة في حياة من حولي . . أمر دون أن يشعر بي أحد . . أفعل نفس الأشياء . . أقول كلاماً واحداً في المواقف المتشابهة . .

كلماتي مكررة . . رحل زوجي بلا ندم . . ملّ حياتي . . هل رأيت المرأة التي معه ؟ جديدة . .

جديدة في كل شيء . . ملابسها . . شعرها . . كل شيء مختلف عني . . لقد جدد حياته . . وأنا ما زلت كما أنا . . الصورة القديمة نفسها . . أبيض وأسود .

حاولت أن أتغير ، ولكن للأسف بدأت متأخرة . . محاولة التغيير جعلتني أكتشف من حولي . . أعرف أنهم لا يريدون حياتي . . كنت قد بدأت ، ولكنهم رفضوا رؤيتي . . أغمضوا عيونهم . .

أعرف أن التجديد يمنحنا طاقة لا حدود لها . . يعود بأعمارنا إلى

الـوراء، وهـذا مـا نشتاق إليه عندما يمضي بنا الزمن . . قبلت الطلاق رغـم الألم . . رغـم أنـني كـنت رافضـة لـه . . قبولـي كان نوعاً من التجديد .

أقبل الجرسون ووضع أمامها كوباً من الشاي : إنها الخامسة تماماً .

توقفتْ عن الكلام ، نظرتْ في ساعتها ، إنها الخامسة تماماً ، شاي الخامسـة من بقايا عهدها القديم ، موعد ثابت لا يقبل التغيير ، نظرت نحو الجرسون ، رددت بثقة :

ـ لا أريده .

الرقم الأخير

قبل أن أذهب إليه، عرفت أنه يبدل النساء في حياته كما يبدل ملابسه، تغيير يحدث طيلة الوقت، ولكن لابد من الذهاب إليه، ظروف العمل تتطلب هذا، فرغم جمالي الهادئ، فإنني أتجاهل تماماً لغة الجسد، إنني شخصية قوية، ثابتة، والأهم جادة، ولهذا رشحوني لهذه المهمة.

كان اللقاء الأول سهلاً، سريعاً، عابراً، كنت كعادتي جادة، بل أكثر جدية من المعتاد، كسبت احترامه منذ اللقاء الأول، فهو رجل يعامل كل امرأة كما تحب أن تعامل.

في اللقاء الثاني كسبت شيئاً آخر، كسبت صداقته.

في اللقاء الثالث كانت كلماته أكثر رقة، بل أكثر حرصاً، فلقد حركت داخلي بركاناً ساكناً منذ زمن، كنت في الظاهر هادئة غير مبالية، ولكن البركان كان قد بدأ في الحركة، حركة أذابت الحواجز بيني وبينه، فعبرت ولكن بحذر.

في البيت كنت أفكر فيه كثيراً، أعطاني رقم تليفونه الخاص، قاومت، كنت أدير القرص وأهرب عند الرقم الأخير، ولكنني بدأت أشعر بميل غريب نحوه، بدأت أشعر بالحاجة إلى حب يملأ حياتي، وبدأت لا أهرب عند الرقم الأخير.

في البداية أسرني صوته، وامتلكني حديثه العذب، ثم بدأت ألقاه، أضاف إليّ معانٍ عن الحب كنت أحتاج إليها، غيرني، أتلف وقاري بعض الشيء، صرت أسمح لأذني أن تسمع عبارات الحب الساخنة، وأسمح ليدي أن تلامسا شفتيه عند اللقاء، حرك ثباتي، وضعني في مكان آخر، جعلني أتوهم أنني أجذبه إلى عالم جديد تماماً.

تمكن هذا الساحر مني، عرف طرقي المختفية، بدلني، لمع ضوء الحب في سمائي الزرقاء، تحول البحر الساكن، صار كل شيء معه رائعاً، لكنني بدأت أشعر بأنه أحبني بطريقته هو وليس بطريقتي أنا، حاول أن يحاورني بلغة الجسد، فلقد بدأ الحوار العقلي يفقد بريقه، وبدأ الحبيب يفقد صبره، ولكنه نسى أن الجسد واحد، يتكرر بتفاصيله من امرأة لأخرى، لم يدرك أن الاحتواء الكامل لي يكون بالعقل، بل بالعقل وحده، أحتاج إلى الحب، ولكنني أحتاج إلى العقل أكثر.

لقد غيَّر الكثير، ولكنه لم يقترب من عقلي، اهتم بالجسد ولم يهتم بما يسيطر على هذا الجسد ويحركه.

كان نداء العقل عنيفاً، مؤلماً، رفض بشدة سطوة الجسد، فبهذا الجسد سأصبح امرأة مثل كل النساء، سأفقد أهم ما يميزني، الملامح تتغير بمرور الوقت، ولكن ملامح العقل ثابتة، بل قد تزداد جمالاً.

أدركت أنني سأصبح رقماً جديداً يُضاف إليه، وأنه يسعى كعادته إلى الجسد، فحتى أحاديثه كانت ساخنة مثل رغباته، اخترقت تفاصيلي وأشد خصوصياتي.

انسحبتُ، فكما ضاق هو بحوار العقل، سئمت أنا محاولاته للوصول معي إلى لغة لا أريدها، ولا أريد أن أتعامل بها، كان لابد أن أعود إلى نفسي، طاردني فترة، فلقد كنا لا نزال في بداية الطريق، وكنت لا أزال في عينيه لغزاً، ولكنه توقف سريعاً، فلقد كنت قوية في انسحابي، مصرة عليه، وبقدر ما كان صعباً للغاية أن أخسر نفسي، كان سهلاً للغاية أن يبحث هو عن لغز آخر. أدركت حماقتي، عرفت أنني - ولأول مرة - أنحرف عكس تياري، أدركت أنني لن أُغيِّر الآخرين، لن أبدل الأماكن، إما أن أقبل وإما أن أرحل، كل شيء سيعود كما عدت أنا.

عـدت. . ولكـن عـدت أقـوى، وأكثـر ثـباتاً وجديـة، ولهـذه الأسباب؛ رشحوني لمنصب أعلى.

الوهــم

وقفـتْ في مدخل العمارة تسأل البواب عن إحدى الشقق، تأملها بشيء من الملل ثم أجاب وهو يشيح بوجهه: في الدور العاشر. عندما سـألتْ عـن مكـان المصـعد، أخبرها أن المصعد عطلان، نظرتْ اتجاه السلم وهمستْ لنفسها: يا إلهي.. عشرة طوابق كاملة!

قررتْ أن تتأنى في الصعود حتى لا تشعر بالتعب، لابد أن تصعد إلى شـقته، لابـد مـن الحـوار، فلقـد أصبحت الفواصل كثيرة في هذه العلاقـة الشـائكة، لا مفـر مـن وضـع الـنهاية. أخبرها أن الهاتف لا يصلح لهذه المناقشات الطويلة، قررا معاً أن يكون اللقاء في شقته، لم تكـن خائفـة مـن هذه الزيارة، كانت تعتقد أن الحقيقة التي اكتشفتها مؤخراً، أعطتها القوة على المواجهة.

إنها امرأة متزوجة، ورغم هذا سمحت للحب أن يطرق قلبها من باب خلفي، تجاهلت اللوم. منحت للحبيب قلبها فقط، واحتفظـت بالجسـد، وظلـت مشـتتة، ضائعة بين قلب أصبحت لا تملكه وبين جسد تمنحه بلا قلب.

تـوقفتْ، شـعرتْ بالـتعب، الأفكـار ترهقها أكثر من الصعود،

نظرت إلى أسفل ، ما زالت في الطابق الثاني ، ما زال الطريق طويلاً .

دفعهـا الفـراغ الذي يسكنها إلى حب آخر ، نفسها المتمردة كانت أقـوى مـنها ، عانـدتها ، هيأتْ لها الحب ، جعلته حلو الملامح ، رأت الحبيب في صورة غير الحقيقة ، ولو أنها دققت النظر لأدركت أنه يحمل نفس الصفات التي تجعلها تبتعد عن حياتها الخاصة وتقترب منه ، إنها تمـنح قلـبها لمـن لا يسـتحق ، تعيش أحاسيس خاطئة في زمن وهمي ، زمن وحبيب من صنع خيالها .

تـوقفتْ مـرة أخـرى ، تنهدت ثم تابعت الصعود ، لقد أصبحت هشة للغاية ، أصابها هذا الحب بالضعف ، شعرت أنها مع الحبيب بلا صوت ، امرأة في المرتبة العاشرة وربما أقل .

تـوقفتْ ، حاولـت أن تسـمع نفسـها ، لا صـوت ، ضـاعت الكلمـات ، فـتحت حقيبـتها ، أخـرجت نظـارة الشـمس الداكـنة ، ارتـدتها ، بـدأت في بكـاء هادئ ، عالج البكاء بعض جروح النفس ، مسحت دموعها بيدها المرتعشة ، لمست سخونة الدمع ، كان في سخونة جـرحها وخـوفها ومشاعرها ، تأملت السلالم خلفها ، كانت نظرتها منذ بدأت الصعود نحو الخلف دوماً .

واصـلت الصـعود مـرة أخـرى ، إنهـا تقـترب ، تسـاءلت : هل

ستســمح للوهم أن يجتازها مرة أخرى ؟ . . . . لقد جاءت لكي تقول وداعـاً، ستفتقده، ستفتقد الوهم الذي عاشته زمناً وصدقته، لابد أن تكـون أقـوى مـن نفســها، أقوى من ضعفها ووهمها، لابد أن تغادر خـيالها الـذي خدعها طويلاً، أن تعلن الرحيل إلى الواقع، فهو بمذاقه المر أحلى من شهد الخيال .

وصلتْ إلى الطابق العاشر، اقتربت من الباب الذي يحمل اسمه، أصابها شلل تام .

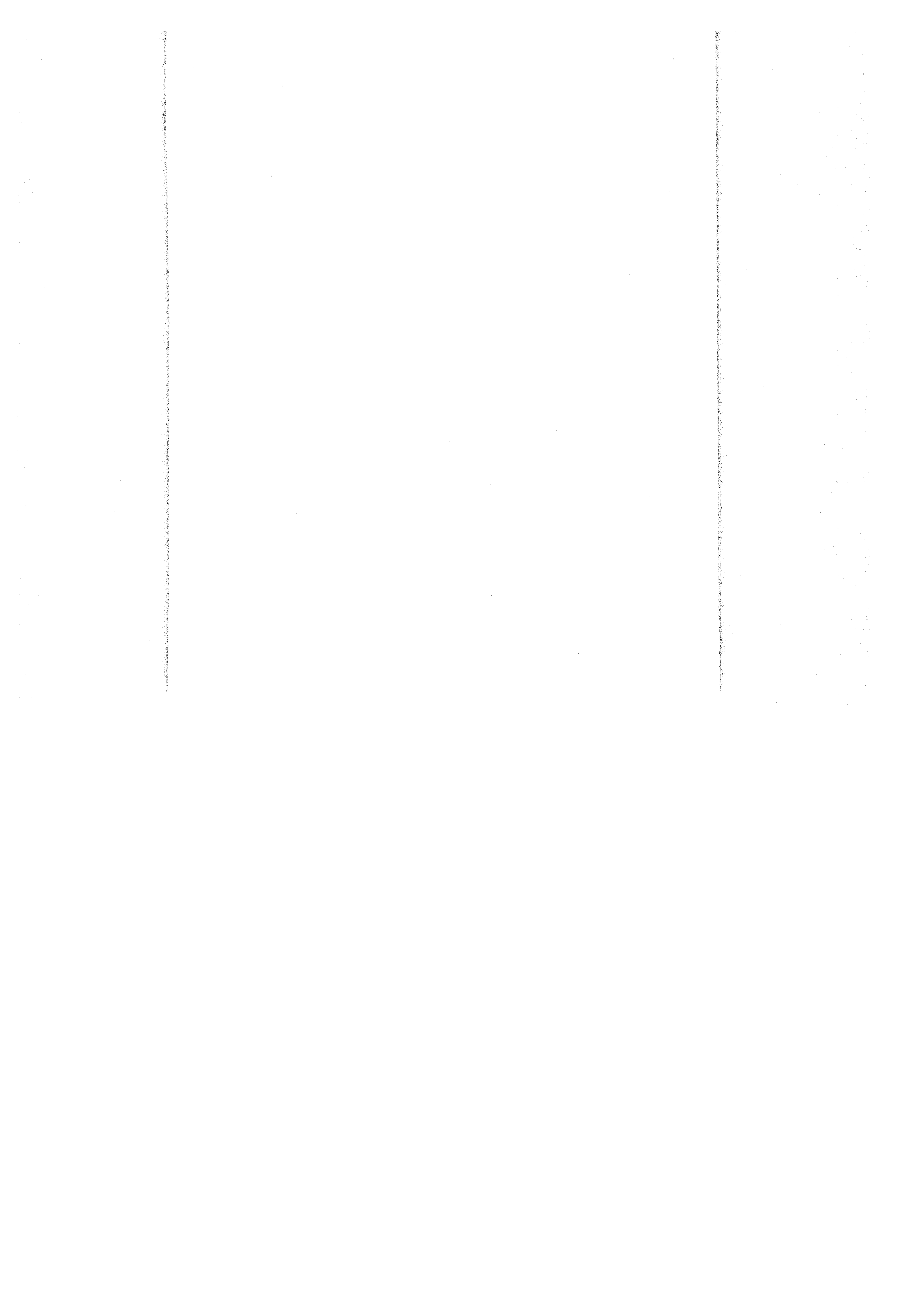
لماذا صـعدت إلـيه ؟ . . إنها تدعي إنها تقاومه ولكنها جاءت ، الـوداع لا يحـتاج إلى نقاش، إنه قرار لا رجعة فيه، والنقاش قد يحتمل العودة .

اسـتدارت، سـارعتْ نحـو السلالم مرة أخرى، تجسد لها الوهم ضاحكاً ساخراً، حطمته .

كانت رحلة الهبوط سهلة وسريعة .

في طريق العودة رن هاتفها المحمول، كان هو : لماذا تأخرت ؟

أغلقتْ الهاتف، إنه رحيل بلا عودة .



نجمة

كانت الإضاءة خافتة، الوقت ليلاً. الزوج مسافر كعادته، الأطفال نائمون في غرفتهم، هي تنام وحيدة، الوحدة إحساس يسكنها، تطارد النوم كعادتها.

فجأة.. شاهدت شيئاً يدخل الغرفة، في الإضاءة الخافتة بدا كالشبح بلا معالم، شعرت إنها تتخيل، الشبح صار أمامها، ينظر إليها وتنظر إليه، إنه حقيقة، شعرت بالخوف، دفعها.. سقطت.

الأشباح لا تدفع البشر، تخيفهم فقط، لابد أنه لص، ليس هناك تصور آخر، ماذا ستفعل؟ واللصوص أشد خطورة من الأشباح، كيف دخل الشقة؟ لا وقت للتساؤل، لقد بدأ يقترب منها مرة أخرى، بدأت معالمه تتضح، أشهر في وجهها سكيناً، تشعر بها تكاد تلامس عينيها، بدأ يقترب أكثر من السابق، بل أكثر من اللائق، شعرت بأن أمراً ما سيحدث، لمسها، اشتعل جسدها غضباً وناراً حارقة، نجحت في النهوض، تجاهلت السلاح في يديه وكأنها لا تراه ولا تشعر به، تعرف كيف تدافع عن نفسها، لن تدافع عن الأموال ولا الذهب، ليأخذ ما يريد ويرحل، أما أن يحاول سرقتها هي.. فلا.

اقـترب . . ابـتعدت . . اقـترب مـرة أخرى، دفعته بقوة الغضب داخلـها، لا تعـرف من أين جاءت هذه القوة ولكنها دفعته، مسجونة في هذا البيت، حلم الحرية يراودها دوماً، يمنحها قوة، استغلتها الآن .

سـقط . . سـقط هو ولم تسقط هي، إنه يحاول النهوض، تعرف أنـه سـيثأر لسـقوطه، فالرجال لا يسقطون، نهض، ولكنه سقط مرة أخـرى، هـذه المـرة رقـد بـلا حراك، الدفعة كانت قوية نحو الحائط، الحائط به مسمار صلب بارز، لابد أنه سبب السقوط .

رأت الـدم يـندفع مـن رأسـه بغزارة، صرخت صرخة تجمع بين الخـوف والانتصـار، أسـرعت نحو غرفة الأطفال، أغلقتها، اندفعت نحو باب الشقة، فتحته، صرخت : لص . . لص .

تجمـع عـدد مـن الجـيران في بـيت السـيدة التي لا يعرفونها، ولا تعـرفهم، هـذه السيدة القابعة خلف حجاب الباب، هذا الباب المغلق دائماً، الآن فتحته، ولأول مرة دخلوا، دخلوا ليسمعوا القصة، قصة اللص .

رددت بصـوت مـرتعد في نهايـة قصتها : ثم . . ثم انتصرت عليه بفضل الله .

بـدت القصة عجيبة في عيون الجيران، تساءلوا، لماذا يكون فضل الله في حجرة النوم ؟

والسيدة بملابس النوم ؟ وباب الأطفال موصد من الخارج ؟ والمرأة وحيدة في الشقة ؟

تخيلوا أمراً آخر وأقسموا عليه، رفضوا تصديق الحقيقة، فالحقيقة لم تكن واضحة، كانت مختبئة خلف الباب مثل السيدة تماماً.

صرخت: إنكم عميان؛ نظرت حولها، لاحظت أن الغرفة ليس بها سوى رجال.. رجال فقط، إنهم لا يتأملون الجثة بل يتأملونها هي، إنها النظرة نفسها.. نظرة اللص الذي دفعته، رغم الظلام والضوء الخافت أدركت النظرة، إنها المرأة الوحيدة في هذه الغرفة، وحيدة مرة أخرى. أصبح اللص رجالاً، هل ستدفعهم جميعاً، إنهم يقتربون، صرخت بأعلى صوتها، إنها لا تملك الآن إلا صوتها، إنها وحيدة الآن، بل أكثر وحدة مما مضى.

(انتهى المشهد)

برافو.. رائع.. صفق الجميع، لقد أجادت اليوم، انتهى التصوير، كان المشهد الأخير.

غادرتْ الأستديو إلى المستشفى، أمها ترقد هناك، والحالة حرجة للغاية.

دخلتْ غرفة الأم، الأنابيب تخرج من كل مكان، مقياس القلب هادئ مثل البحر الساكن. لم تلاحظ، اقتربت من الأم بهدوء، جلست إلى جوارها، همستْ: كنت أبحث عنك اليوم يا أمي، كان المشهد الأخير صعباً للغاية، ذكَّرني بالماضي، بكل الرجال في حياتي، هؤلاء الذين كانوا يحلمون بالاقتراب من الضوء الساطع محاولين إطفاءه، كل التجارب كانت فاشلة، أعرف طعم الفشل، عرفت معنى ظهور الرجل ومعنى اختفائه.

الظهور والأفول لهما الطعم نفسه، كلاهما مر، سلسلة لا تنتهي من التضحيات، وكثيراً ما تكون صعبة ومستحيلة، كسبت نفسي، لم أنطفئ، صرت نجمة لامعةً لأنك معي.

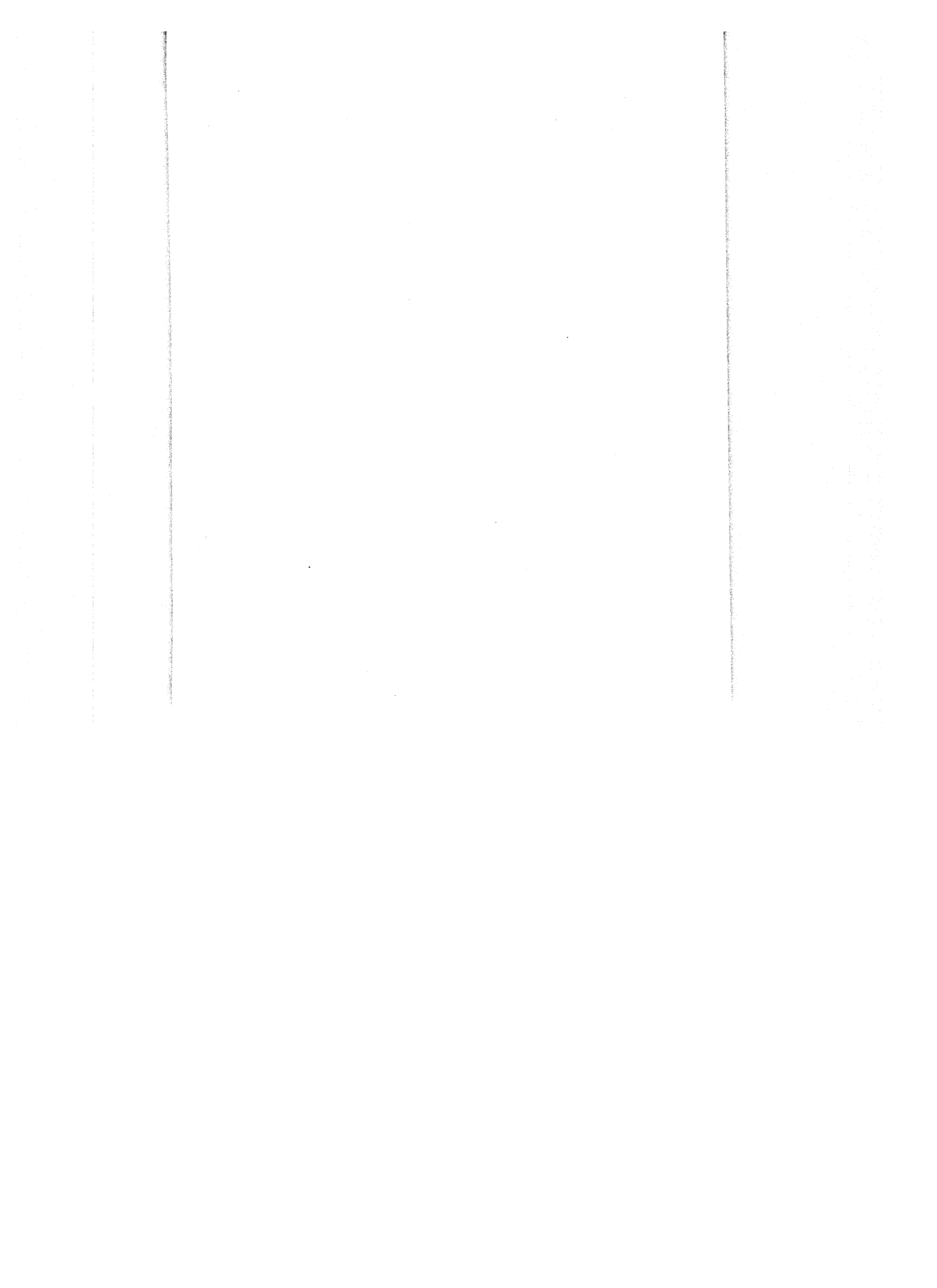
أحاطوني يا أمي، أحاطني الماضي، صرخت، كنت أناديك، أبحث عن يد تنتشلني، يد تساعدني على النهوض، كنت أتجاوز بك كل آلامي، فعثراتي كثيرة.

أنت في حياتي الشيء الثابت الذي لا يتغير، الحب الذي لا يتبدل، أنت عالمي، أرجوك تماثلي للشفاء، أنا دونك وحيدة.. وحيدة الآن.. بل أكثر وحدة مما مضى.

غادرتْ الغرفة، كانت متعبة، دخل الطبيب، نظر في جهاز

القلب ، أدرك أن الأم قد ماتت .

رحلت الأم ، الموت كان في الانتظار ، ولكن النجمة ما زالت ترفض هذا الرحيل .



العطـر

جلـس وحـيداً يفكر ، ماذا حدث ؟ لماذا تغيرت الحياة التي تركها وسافر ، كان حبه حقيقة رائعة ، لماذا تتبدل الحقائق ؟ ، منذ عاد لم يعد يشـعر بها ، لم تعد قريبة منه ، ذبلت ، ابتعدت ، تساءل : هل أرهقتها غربتي إلى هذا الحد ؟

ما زال يفكر ، الوقت لا يمر ، كانا معاً قبل الزواج ، يدها في يده ، كانـت الحياة تحمل رائحة العطر ، لا مكان للكرامة والخصام بين قلبين جمعهما الحب ، لم تكن تطيق فراقه لحظة واحدة ، كانت تردد له دوماً : رائحة عطرك لا تغادر يدي أبداً .

كـان يضـع العطـر مـن أجلها ، يشتريه بنقوده القليلة حتى تحمله معها إلى بيتها ، فلا تنساه سريعاً ، كان العطر يحل محله عند الفراق .

بعـد الـزواج تتـبدل الأحـوال وتلمـع الكـرامة في الأفـق ويطول الخصام ، وتصبح الأشياء الحلوة ماسخة ، حاول جاهداً أن يصلح بينها وبين أمه ، فالبيت الضيق يضمهما معاً ، كل واحدة لا تطيق الأخرى ، تشـعر إنها تأخذ مساحة لا تستحقها ، أمه تتهمه دوماً بسوء الاختيار ،

وزوجته تتهمه بأنه ابن أمه، كان يضحك أحياناً وهو يقول لزوجته: نعم أنا ابن أمي.. صدقيني شهادة ميلادي تحمل اسمها.

كان فقيراً متواضعاً ولكنه يحمل قلباً غنياً بالحب، كان يحب زوجته، ولماذا لا يحبها وهي فاتنة، حلوة الملامح، ملفوفة القوام، لم يشعر يوماً إنها لا تليق به.

كانت أمه دائماً ثائرة عليه، ثورة لا حد لمفرداتها، أما الزوجة فكانت ـ كلما ضاقت بها الدنيا ـ تهدد صارخة: طلقني..، لم يكن ليفعل أبداً، إنه عاشق لها، ولكن أمه لا ترى هذا العشق ولا تصدقه، ولا تهدأ الثورة ولا يحدث الطلاق.

كان يشعر أنه يريد أن يعوضها عن الفقر والحرمان، أن يمتلك الأموال التي تمسح العيوب وتبدلها مزايا رائعة، قرر أن يسافر، يعود لها مُحملاً بالهدايا، بكل ما تتمنى، أحلامه محدودة تناسب طبعه وأحواله.

في الغربة سيجني الأموال، سيملأ دولابها الفارغ بالملابس، ويدها بالأساور الذهبية، ويضيف إلى أذنيها قرطاً رائعاً يمنحها جمالاً فوق جمالها، كل شيء سيتغير، ستعود رائحة العطر.

أمه رفضت السفر، اتهمته أنه يبيع عمره ويخسر أيامه، لم

يستمع، سافر، ماتت أمه حزناً على فراقه، قربه كان يمنحها الحياة، حل السكون برحيل الزوج والأم، بقيت هي تعاني الوحدة التي طالت كثيراً.

الغربة كانت قاسية، شعر أن حياته تتسرب من بين يديه، وأن ما يحصل عليه لا يوازي آلام الوحدة، كانت صورتها لا تغادره وهو يقضي الليل وحيداً، كان ليل الغربة طويلاً مرهقاً، ولكن أحلامه كانت تنتصر فيبقى عاماً آخر في هذا الليل الطويل الموحش.

بعد خمسة أعوام متصلة قرر العودة، فالاشتياق أصبح أكبر من احتماله، أكبر من قرار البقاء، انتصر قلبه على أموال الغربة، عاد مُحملاً بالهدايا.

عاد لها ولكنها لم تكن هي، كل شيء مازال كما هو؛ البيت، الشارع، الجيران، ولكنها تبدلت، جفت المشاعر والأحاسيس التي كانت تغذيها، ذبلت كأوراق الشجر.

بدأ يتأملها أمامه، اخترقها، يريد أن يعرف سر الذبول؟ فلقد اتسعت المسافة بينهما، أصبح للصمت مساحة لا تطاق، كان قلبه يؤكد له دوماً إنها تحبه، أمسك يدها، قبّلها: ماذا حدث؟ ما زالت يدك تحمل رائحة عطري.

وكأنها كانت في انتظار: أي عطر.. سنواتي السابقة كانت بلا عطر.. أنهكتني الغربة..

بقيت هنا وحيدة بلا زوج ولا طفل ولا مال.. كنت أشتاق إليك.. بل كنت أشتاق لثورة أمك.. ولكن لا صوت.. حل الجفاف.. سكنني البؤس.. كل شيء ثابت إلا أنا.. الليل طويل وطول الليالي يجعل الخوف يسكننا.. عندما هجر الحب قلبي سكنني الخوف.. تمكن مني.. حاصرني.. واجهت الكثير وحدي.. لم تكن معي.. لم تعد تشاركني متاعبي.. تعلمت أن أحيا بدونك بعد أن كنت لا أطيق فراقك.. كنت أشتاق إلى الكلام.. أفتقد صوتي ودلالي.. تعلمت الوحدة، فعلمتني أن أصادق الخوف.. كنت أريد الذهب والقرط والملابس، ولكن هذه الرغبة تبدلت.. قبل سفرك كنت أنا من يبدأ الكلام.. أنا من يبدد مخاوفك.

الآن كلانا صامت.. كلانا يحتاج لمن يبدد صمته.

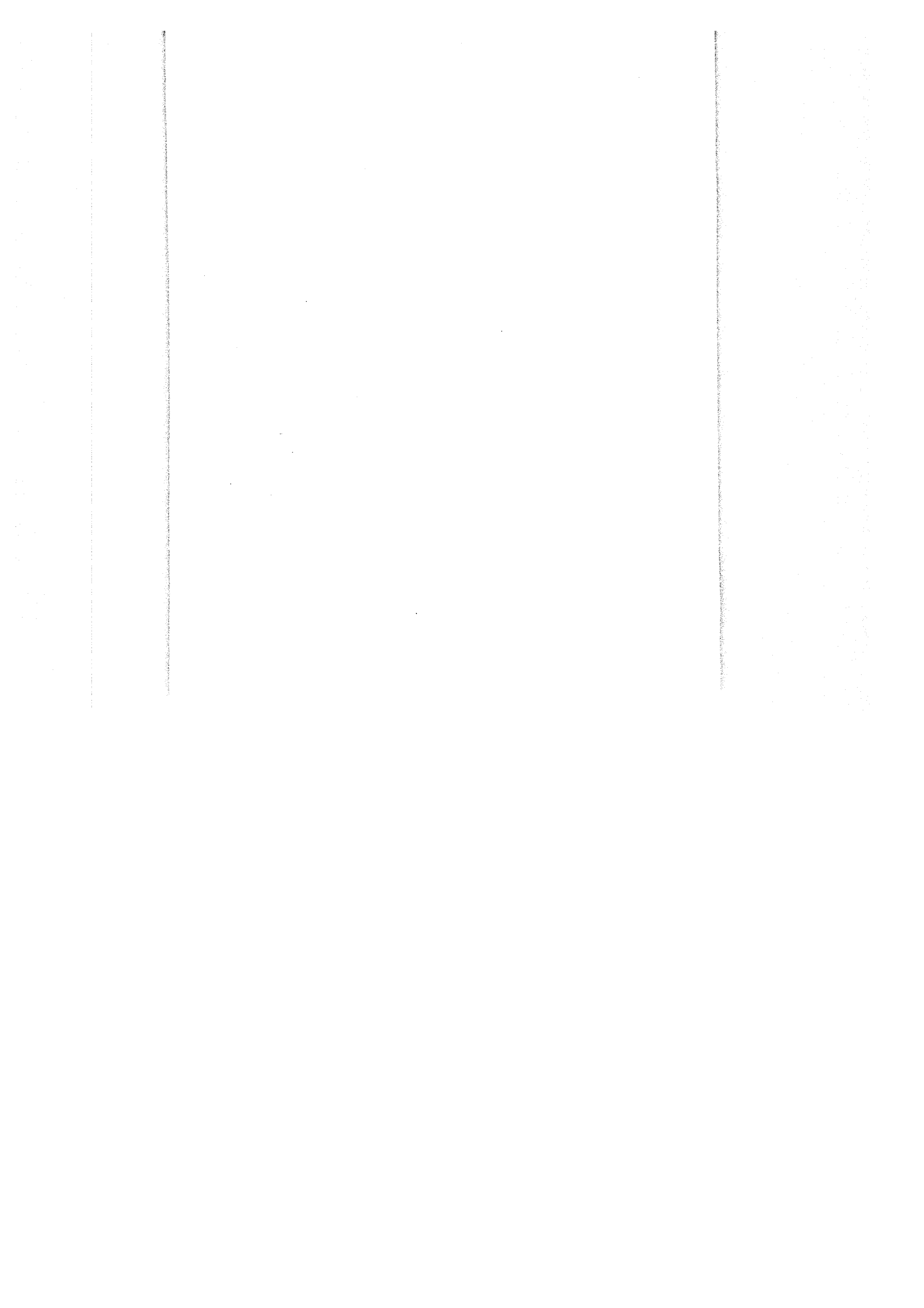
دخلت غرفتهم، عادت تحمل الملابس والذهب، نزعت القرط عن أذنيها، وضعت كل شيء أمامه: خذهم. لقد سلبوا قلبي.. أضاعوا أيامي. كانوا السبب في غربتي ووحدتي وجفافي.

- إلى أين؟

ـ لم يعد لي مكان هنا .

أمسك بيدها : سأبدأ أنا . . سافرت حتى أعوضك الحرمان . . فجلبت لك حرماناً أكبر . .

لم أدرك أن كلينا عاش الغربة وتألم من قسوتها . . ولكننا عدنا . . امنحيني فرصة ، فما زالت يداي تحملان عطراً . . ما زال هناك ما أمنحه .



لحظات مسروقة

جلستُ إلى الطاولة الأنيقة في أحد المطاعم الهادئة أنتظرها، لابد أن الزحام قاتل في الخارج، ولهذا تأخرتْ، التقيت بها كثيراً في ظروف مختلفة، لكنها طلبت لقائي بشكل شخصي، لتناقش معي أمراً ما، ما زلت أجهل هذا الأمر ؟ ولكن ما أعرفه أنني سعيت إلى هذا اللقاء، وأنني أنتظرها، هناك ما يدفعني للبقاء، بدأت أتأمل الناس من حولي لقتل الوقت، رأيت وجهاً بدا لي مألوفاً - أو ربما تخيلت هذا - ثم أدركت أنه يذكِّرني بصديق عزيز لم التق به منذ زمن.

ابتسمت.. تذكرت صديقي هذا جيداً، تذكرت لقائي الأخير به، تذكرت زوجته، تذكرت دموعها الحارة وهي تحكى لي عن الأخرى، التي تظن إنها موجودة في حياة زوجها، كنت وزوجتي نحاول أن نجلب لقلبها المنزعج بعض الهدوء، كانت تحكي والدموع تنساب من عينيها الجميلتين كيف جمع الحب بين قلبها وقلب صديقي من النظرة الأولى، كيف كان كل شيء بينهما يولد طفلاً رائعاً في المهد، الحب، الزواج، الأمومة.

تســاءلت زوجـة صديقي : لماذا انتهيت في عينيه وقد كنت حباً لا ينتهي . . أين ذهب كل هذا . . لماذا رحل الحب ؟ أصبح زوجي صامتاً شـارداً . . لا يـتحدث في البـيت مطلقـاً . . لا يشاركنا أنا والأبناء أي متعة . . زادت مساحة الصمت والوحدة في حياته كثيراً . . معنا ولكنه في مكـان آخـر . . يسـتمتع بوحدته . . ينام في حجرة منفصلة . . كان يقـول الكـثير وهـو صـامت شـارد . . ابتعد بجسده عني . . ثم بدأت روحـه تغـادر شيئاً فشيئاً . . رغم ذلك ما زلت أحبه . . وأحياناً كثيرة ألوم نفسي على أنني ما زلت أحبه .

قـررتُ أن أذهـب وحـدي إلـيه ، فهـو صـديق عمري ، أريد أن أعـرف أسـباب صـمته ، أن أعـرف مبررات الرحيل ، فلقد ترك شقته وذهب للإقامة في شقة أمه الراحلة ، كان قليل الكلام ، بعد مقدمات لا معنـى لهـا . . تساءل : هل أرسلتك ؟ هل سمعت شكوكها وظنونها التي لا تنتهي ؟ هل رأيت دموعها التي لا تتوقف .

ضم رأسه إلى يديه وكأنه يحاول أن يعتصره ، شعرت بقسوته على نفسـه ، نظـر نحـوي طـويلاً نظـرة لا أنساها ، كنت أرى فيها نوعاً من الانكسار ورغبة في الهروب ، بادرته :

لماذا ؟ لماذا تركت بيتك ؟ لماذا غادرت حياتك كلها ؟

ظـل يفكـر وكأنـه يتمنى أن لا يتكلم: إنه إحساس لا أستطيع أن أصفه . . ونقطة لا أعرف لماذا وصلت إليها . . وأسئلة بلا إجابات . . سـأتحدث معـك كـأنني أتحدث إلى نفسي . . سأقول لك ما أخفيه . . نعـم هناك امرأة أخرى غير زوجتي . . هذه المرأة أخرجتني من القالب الجامـد الذي أحياه . . فتحت أبوابي فدخلت . . كانت شيئاً مختلفاً . . أضـافت لحياتي مساحات جديدة كنت أحتاجها . . منحتني قدراً أكبر مـن حـرية الحـركة . . تملكـتني دون أن أشـعر . . أصـبحت أحب أن تشـاركني أفكـاري، أن تشاركني أحاسيسي وخواطري . . إنها تشعر بـي جـيداً . . تـتكلم عـندما أحـب أن أسمـع صوتها . . وتصمت في لحظات صمتي . . أعادت اكتشافي .

كنت قد بدأت أشعر بأنني أفعل الشيء نفسه كل يوم . . أسير في طـريق واحـد . . في اتجـاه واحـد لا يحـتمل العـودة . . جاءت هي . . اقـتحمت منفاي الذي اخترته بإرادتي . . جعلتني أشعر بأن هناك شيئاً مـا جديـداً . . حطمـت مـا كـان يحجب عني الرؤية . . أبصرت الدنيا بعـيون جديـدة . . عـيون لم يعد بريق الماضي يأسرها . . أدركت أنني تحـررت مـن أشـياء لا أريدها . . أحب زوجتي . . نعم أحبها ولكنه لـيس الحـب نفسه الذي بدأنا به . . إنه الواجب وليس الحب . . أدرك أن الواجب قد يحكمنا بدرجة أكبر من الحب . . ولكن زوجتي رفضت

هـذا. . رفضـت أن يحكم الواجب علاقتي بها. . وعندما شعرت بأن هـناك أخـرى. . هاجمـتني. . سـعت خلفـي. . لم تكـن بجانبي مثل الأخرى.

تمسـكت زوجـتي بالماضـي. . حاولـت أن تعيد إليه الحياة. . أن توقـف الـزمن. . تناسـت أن كـل يـوم يحمـل شـيئاً مخـتلفاً. . فكـراً جديـداً. . أصـرت على ما كان. . أخبرتها أن الأخرى التي تشك في وجـودها إحسـاس وهمـي. . وأن عـزلتي مجرد مسألة وقت. . كنت أتمنى أن تتركني للوقت. . فربما تتغير أشياء كثيرة كما تغيرت أنا، ربما يرحل هذا الحب الجديد في وقت ما وأعود كما بدأت، ربما أستطيع أن أغلـق أبوابـي مـرة أخـرى. . نظرتنا للأشياء ليست ثابتة. . أحكامنا تتـبدل علـى الـدوام. . أنا لم أطلب أكثر من فرصة. . أكثر من مجرد وقـت. . للأسـف لم تمـنحني زوجـتي هـذه الفرصـة، منحـتها لي ـ الأخرى ـ.

عندما شعرت بأن حياتي مع أسرتي تترنح. . اختفتْ. . شعرت بفراغ قاتل عندما اختفت. . استعدتها من جديد. . رفضت ـ هي ـ أن أعانـي، أمـا زوجـتي فجلـبت لي المعاناة بدموعها وآلامها ومطاردتها لـي. . كـنت أتمنى أن أختلي بنفسي. . أن أعيد حساباتي. . أن أقدر

حجـم خسـائري . . لكـن للأسـف دمـوع زوجـتي أجـبرتني علـى الـرحيل . . لم أعـد أرغـب في الـبقاء خلف أسوارها ، فهي لم تحترم وحدتـي . . قاتلـت زوجـتي مـن أجلـي . . وانسـحبت الأخـرى بهـدوء . . وأنـا أكره المعارك . . انسحبت . . وعندما انسحبت التقيت بالأخرى مرة أخرى .

هـل ستصـدقني لـو قلـت لـك إنني لن أتزوجها ؟ . . أعرف أن زواجـي مـنها حـلال لـي . . ولكـنني سـأظلم أسرتي بهذا الحلال . . سأخسـر الكـثير مـن المشـاعر . . سـأبدل الـثقة الـنادرة بيقين لا يقبل الشـك . . سـيجلب الحـلال صراعاً نفسياً لي ولزوجتي ولأولادي . . لـن أهـدم بـناء استغرقت فـيه أعـواماً طـويلة . . مـن أجـل حديقـة صغيرة . . مهما تكن جودة العطر الذي ستمنحه لي . . كنت أتمنى أن تمنحني زوجتي لحظات . . مجرد لحظات أستعيد بها نفسي . . لكنها لـم تفعـل . . حاصـرتني . . كـان علـيّ إمـا أن أعلن العصيان . . وإما أن أستمع لصوت الواجب .

سألته على الفور : ماذا ستفعل ؟ كان عليك أن تتقبل حياتك كما هـي . . أن لا تحـاول إعـادة اكتشاف ذاتك مع أخرى . . أن لا تبيع أيام عمـرك الطـويلة لكي تمنح نفسك لحظات مسروقة . . . .

أغمضت عيني، عدت إلى طاولتي في المطعم الهادئ من جديد، تذكرت أنني لم أتلق من صديقي أية إجابة، كانت إجابته النظرة نفسها التي استقبلني بها، وقتها كنت ثائراً عليه، رأيت أنه يهدم حياته بلا داع، وأنه يحطم النادر فيها، وأنه يرحل مهزوماً، مكسوراً، خاسراً. أفكر الآن في كلام صديقي، أشعر ببعض الندم لأنني لم أقف إلى جواره، تركته وحيداً، لمته كثيراً، كان مخطئاً ولكن ليس إلى الحد الذي كنت أظنه.

نظرتُ إلى ساعتي، غادرتُ المكان، لمحتها من بعيد تدخل المطعم مسرعة، في كامل أناقتها، شعرت بعطرها يملؤني، لا أعرف لماذا أسرعت بركوب سيارتي؟ لماذا أسرعت بالابتعاد، كل ما أعرفه أنني قررت أن لا أفتح أبوابي لأخرى، أن لا أعيش تجربة صعبة ـ رفضتها ـ لصديق عزيز يوماً ما.

عملة واحدة

كانت كلمات الأغاني تغذي أحاسيسي المتدفقة، فأعيش معها لحظات حب لا تنتهي إلا بنهاية الأغنية، كل الكلمات تتغنى بالحب وتدور حوله، الحب الذي أحياه دائماً، فأنا امرأة عاشقة، أعشق اللحظات الدافئة، أعيش مع الكلمات الموسيقية مشاعر متضاربة؛ هجر، عشق، خداع، حب، رغبة، لا يهم كم تسرق الكلمات من وقتي أو من تسرق، المهم أن أعيشها.

قالوا عني جميلة، فصرت جميلة، أعرف كيف أبرز هذا الجمال وكيف أستغله جيداً، أعرف كيف أُحَرِّك عيني كالسهم فتصيب الهدف، وللعيون لغة يدركها العشاق جيداً.

قالوا عني لعوب، فتقمصت الشخصية، نحن نصدق كلام الآخرين لو ظلوا يرددونه دوماً، بل نصبح أحياناً كما رددوا، أصبحت امرأة لعبتها الرجال، خاصة بعد فشلي في زواجي الثاني.

زوجي الأول لم يقدر جمالي، أراد لي الأمومة، والأمومة تتلف الجمال وتتعارض معه بعض الوقت، وأحياناً معظم الوقت.

زوجي الثاني كان عاشقاً للجمال، ولكنه كان يبحث عنه دوماً،

فالجمال لا يستقر في مكان واحد، ولا يحصره زمن ولا عمر. لم يكتف بزهرة واحدة، تعلمت منه كيف أنتزع الرجال المتزوجين، فلقد انتزعته مني امرأة أخرى، لم تكن أجمل، فقط كانت لعوباً، تجيد فنون اللعب لدرجة الاحتراف.

عندما تم طلاقي للمرة الثانية حملت اللقب، قالوا: لعوب لا تجيد البقاء مع زوج ولا إنشاء علاقة ثابتة، بعد طلاقي الأول كنت جميلة فقط، بعد طلاقي الثاني صرت لعوباً، هذا اللقب اللعين ظل يطاردني بإلحاح حتى صدقته، واعتنقته أيضاً.

بعد طلاقي الثاني تزوجت مرتين، صار الطلاق أسرع من الزواج في حياتي، فالرجل المتزوج؛ الحياة معه قصيرة، البقاء معه ضربة حظ لا أريدها، أريد المال، فلقد أضفت لعبة المال إلى لعبة الرجال، أضفت إلى نفسي أموالاً وعقارات وماسات ذات قيمة كبيرة، لابد أن يكون كل شيء بثمن.

هو.. لعبتي الجديدة، ولكنني للأسف أحببته، وتمنيت أن يكون محطتي الأخيرة، في هذا اليوم كنا معاً نرقص، والرقص اتصال وتواصل، عناق طويل على إيقاع راقص، لم أكن أذوب مع الكلمات والأنغام، لم أنس الدنيا كما كنت أهمس، لم تكن رومانسيتي على

مـا يرام رغم ثبات كل شيء، المكان نفسه، الموسيقى نفسها، الحبيب نفسه، ولكنني لست أنا، كان عقلي هذه المرة بعيداً عنه، مع زوجته، لم أشـعر أبداً بما يسمونه وخز الضمير وأنا ألقاه وأعرف أن له زوجة، فهـذه لعـبتي، إنه رجل جذاب للغاية، مركز اجتماعي مرموق، نفوذ ونقود، أي احتياج لا يحققه رجل مثل هذا لديه كل شيء !

لم يكـن يـتحدث عنها أبداً، ترك المجال لخيالي بحدوده الضيقة، تخيلـتها غـير جمـيلة، غـير أنـيقة، ذات جسـد غير متناسق، خيالات كثيرة، تمنيت أن ألقاها، لا أعرف لماذا ؟

سـعيت جاهدة لهذا اللقاء، لا أريدها أن تعرف من أكون، أريد لقاء لا شبهة فيه، وتحقق لي ما أردت.

وجدت امرأة تغلبت على كل خيالاتي، بل حطمتها وتجاوزتها، جمـيلة، أنيقة، ذات قوام متناسق، جمالها حقيقي بلا مساحيق، أناقتها بلا رتوش إضافية، لابد أن صاحبة هذا الوجه الخالي من الألوان واثقة بنفسها، امرأة تكره الخداع.

تحدثت معي طويلاً، في كل شيء وعن كل شيء، شديدة الثقافة وهـذا مـا أفتقده تماماً، فثقافتي محدودة للغاية، يسهل الدخول معها في أي حـديث، سمعـتها، تأملـتها، كانـت رائعـة، تطـرق الحديث إلى

العلاقـة بين الرجل والمرأة، تعمدت هذا، أريد أن أعرفها، أن أقترب مـنها ولـو بقـدر ضـئيل، فهذه منطقتي وحدود ثقافتي، حدثتني عن المـرأة وكأنهـا كـائن لا أعـرفه، عـرفت أشياء لم ألحظها في نفسي من قـبل، جعلـتني أحب كل امرأة، تجاوزت حدودي الضيقة، وأضافت إلـيّ، كانـت عمـيقة الفكر، تغوص بعيداً عميقاً في نفسك فتستخرج كل شيء، من الصعب أن لا تمنحها مفاتيحك، من الصعب أن تتلون أمامهـا، فهـي امـرأة بـلا مسـاحيق، تواضعها المحسوب يمنح قرباً لا حدود له.

دون أن تقصـد واجهـتني بنفسـي، جردتني، كسبت الجولة التي ظنـنت أنـني سأكسـبها، اكتشـفت أمامهـا أنني لا شيء، مجرد ألوان وعطـور فاخرة وملابس عارية، جسد متناسق، أشياء تذبل وتتبدل، مـن أنـا ؟ لـوحة جمـيلة، قلـيل من الماء يمسح معالمها، ألهذا أحبني ؟ لأنـني مثله زائفة، جمعتنا المظاهر الخادعة، لم تحاول أحاديثنـا العابـرة أن تصـل إلى الأعماق، كل منا لا يجيد السباحة، لا يرى من الآخر إلا ما يخدع البصر.

مـن أنـا ؟ مجـرد محطة في حياته، بعد لقائي بها، أدركت لماذا لم يطلقها، أدركت أنه لن يطلقها، أنه يحبها، يعرف قيمتها، هي المحطة الأخيرة، هي صدق بلا زيف.

قبل أن أراها راهنت على أنني سأنتزعه لنفسي، ظننت أنني سأكسب، أقسم لي أنني الحب الوحيد الذي احتواه، وأنني المحطة الأخيرة التي لا سفر بعدها، كيف لم ألاحظ أنه تعهد أن يتخلى عن كل شيء إلا هي، كاذب، ولكنني صدقته، قبلت خديعته لأنني مخادعة مثله، إنه زائف مثلي، نحن وجهان لعملة واحدة.

هي في حياته حب عاقل، أنا حب عابر، لحظات، وقت يمضي، معها كل شيء محسوب وبدقة، معي كل شيء مباح وسهل.

أدركت إنها البطلة الأولى التي تحصد الجوائز، أما أنا فصاحبة الدور الثاني، قد يكون مهماً، ولكنني سأحلم دوماً بدور البطولة، أدركت أن هذا الكيان العملاق الذي يحتويني مجرد قزم، قزم صغير أمامها، لابد إنها تتجاهله، تتجاهل زيفه وتتذكر أمومتها وعقلها، عقلها الذي يمنحها الثبات.

همس في أذني: ماذا هناك ؟ ما الذي يشغلك ؟

لم أكن أسمع الموسيقى، كنت أرقص بلا نغمات، حركات غير محسوبة، دست قدمه كثيراً، أوجعته، تنبهت، عاد إليّ العقل الذي رحل بعيداً، رأيته ولكن هذه المرة كان مجرد قزم، لابد أن أحصل على دور البطولة المطلقة، وإلا فالانسحاب هو الحل الأفضل، عرفت أنني

قد أكون مجرد نزوة، منحني المال والماس ولكنه لم يمنح وعداً بالزواج، أدركت أنني من السهل أن أحصل على مكان بقربه، ولكن من الصعب أن أحصل على المكان نفسه في قلبه، بدأت أمل الفشل والطلاق، لم أعد بحاجة إلى مزيد من المال، امتلكت ما كنت أتمنى، المال يمنح السعادة، ولكنها سعادة مؤقتة، أريد علاقة ثابتة تملأ حياتي، استيقظ داخلي شعور غريب لم أشعر به من قبل، أظنه الأمومة.

بدأت أسمع الموسيقى، شعرت بأن حبي سينتهي بنهاية الأغنية، لا أريد أن أبقى محصورةً في الدور الثاني، قد يكون البديل رجلاً آخر متزوجاً، لا يهم، المهم أن لا تكون في حياته زوجة مثل هذه، هذه التي جردتني.

كلمات

لن أتحدث عن ظروف لقائي به، فأنا حتى لم أعد أذكرها، ولكن هذا اللقاء كسر الملل الذي دب في أوصالي، حطم عالمي الصامت، أصابني ببعض السرعة بعد أن صار إيقاع الحياة بطيئاً إلى حد الشلل، هذا اللقاء أعاد تكويني، منحني الحياة الأخرى التي كنت أبحث عنها.

كان لقاءً بالكلمات فقط، لم يكن للغرائز أي دور فيه، لم يكن بيننا لغة غير الحوار، جمعتنا الكلمات، كسرت حاجز الصمت في حياتي، صرنا قريبين إلى حد التماثل، خلقت الكلمات علاقة صادقة، اتسمت بالشفافية، فانتقلت الأحاسيس بلا قيود، وتحركت الأفكار دون زيف، وأصبحت المشاعر حرة طليقة.

كلمات منحتني لحظات سعادة غالية، غالية للغاية، جددتني، لمستني، أعادت الضائع مني، دون أن تقصد قدمت لي أشياء كثيرة كنت أحتاج إليها، بل كنت أبحث عنها وأشك في وجودها، ودون أن أدرك تغيَّرت، صرت أشم للعطور رائحة أخرى، وأبصر كل المعاني الخفية، استولت هذه الكلمات على روحي، حلَّقتُ بعيداً، وجدت

في البعد الكثير من الأشياء المفقودة، صرت أنا وهذه الكلمات روحاً واحدة، منحتني أجنحة بيضاء، فحلقت بعيداً مثل طائر يهرب من الأسر، يبحث عن لحظة حرية.

لن أتجاوز، لن أعبر مع الكلمات إلى عالم الرغبة، سأبقي عليها صادقة نقية، فأنا أدرك أن التجاوز يقتل الروح، ويحطم الجمال، ويغير خريطة الطرق.

أدرك إنها مجرد كلمات، كلمات تراني كما أريد، تدركني، تضيف إليّ، كلمات منحتني الحياة، منحتني صدقاً نادراً، تلاشت كل الأشياء أمام هذه اللحظات التي أحياها، والتي أعادتني من جديد، وضعت الكلمات حاجزاً من حرير بيني وبين الأشياء، فصرت ألمس الأشياء بأجنحتي البيضاء، وبدأت أشعر بالغربة عن كل المحيطين، لا أراهم ولا أسمعهم، أحيا في عالم لا تشعر به إلا روحي فقط، انفصلت عن جسدي، فالجسد في قاموسي عنوان للرغبة، والرغبة لا تحكمني أبداً، صرت غريبة وسط البشر مثل الأزهار الجافة، تمنحنا الجمال، ولكنها تبقى أزهاراً بلا روح وبلا عطر.

حلقت مع الكلمات ونسيت أشياء كثيرة، نسيت أنني طائر

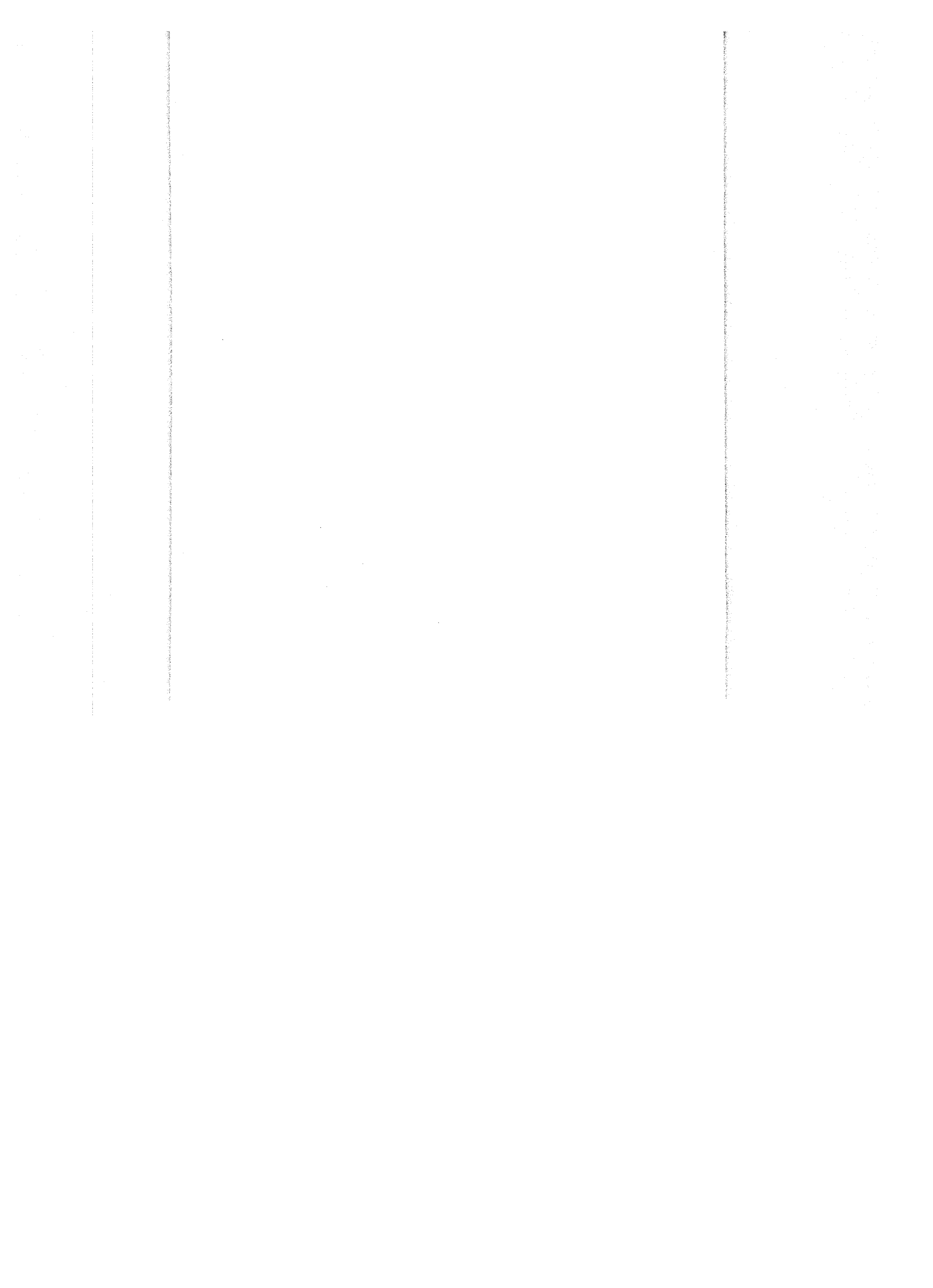
شـرقي، وعـالم الشرق يرفض الصداقة بين رجل وامرأة، لا يرى من المرأة إلا جسداً تحكمه الرغبة.

تسـاءلت: هل من حقي أن أرحل بعيداً عن متاعبي وآلامي ؟ أن أبحث عن السعادة في كلمات.. كلمات لا تأخذ بل تعطي.. هل من حقي أن أتحرَّر من جسدي الشرقي ؟

هـل مـن حقـي أن أخلـق لنفسـي عالمـاً حريـرياً.. عالماً يمنحني إحساساً بالراحة.. عالماً يمنحني كلمات صادقة.. كلمات بعيدة عن الزيف والغيرة والأحقاد!

هـل من حقي أن أحلق خارج أسواري ؟ هل سيصيب الرصاص الباحث عني أجنحتي البيضاء ؟ هل سأتوقف ؟ لا أعرف.

حاولـت، عندها عاد الصمت مرة أخرى، وبدأ الملل يتسرب من جديد.



اللون الأبيض

فُتح بـاب الحجز الانفرادي، فركت السجينة ذات البدلة الحمراء عينـيها تـتأمل القـادم، لابـد أن اللحظـة قـد حانـت، كانت مستعدة للمـوت، رأت سـيدة ترتدي ثوباً أبيض وطرحة بيضاء على رأسها، تأملتها، عرفتها على الفور، همست لنفسها: إنها أمي . . نعم هي.

عرفت أنهم حققوا لها رجاءها الأخير، هذا الرجاء أن ترى أمها قـبل أن تغـادر الدنـيا بـلا رجعة، دخلت السيدة، أقبلت الفتاة عليها تـريد أن تُقـبل يـدها، سـحبت السيدة يدها سريعاً، نظرت نحو الفتاة بوجه جامد: لماذا طلبت لقائي ؟!

ردت الفـتاة سـريعاً دون تفكـير: لأنـك أمـي . . تقـدرين مشاعري . . تعرفين أنني رغم كل شيء أحبك.

ـ ماذا تريدين ؟

ـ أريـد رضـاك في سـاعاتي الأخـيرة . . لا أطلـب أكثر من هذا الرضا . . لعله يكون شفاعة لي بعد الموت.

ـ وكيف أمنحك الرضا ؟ كيف أدعي كذباً أنني راضية عنك؟

ارتمت الفتاة تحت أقدامها متوسلة : أرجوك . . أحتاج إلى هذا الكذب الآن . . أحتاج إلى طوق نجاة .

ـ لا أعتقد أنك ستحتاجين إلى طوق واحد فقط .

ـ لا يهم . . يكفي أنك جئت . . أراك الآن أمامي . . ألمح الطهر كله في ثوبك الأبيض . . يكفي أن تكون صورتك آخر صورة أراها قبل الموت .

ـ أنت من جلب الموت لنفسه !

ـ لقد كنت ميتة بالفعل منذ زمن . . لم أعرف طعم الحب منذ غادرت بيتك يا أمي . . في أحضانك كان الله يشاركني كل حب طاهر نظيف . . كل حب يقربني منه ومنكم . . حب الله يمس الروح ويشغل القلب . . شعرت بأن حب الله يغادر قلبي عندما استبدلت بحبه حب البشر . . هؤلاء الذين لا يمتون لي بأي صلة . . لم يجمعني بهم إلا حب الدنيا بلهوها وشهواتها . . غادرني حب الله فاقتربت من الشيطان . . احتواني . . برر أخطائي وسقطاتي .

شعرت بأن البيت خانق . . هربت بحثاً عن الهواء ووجدته . . كان هواءً فاسداً ولكنني أدمنته . . لم أمنع نفسي من أي شيء . . عشت الحياة بكل متعها دون توقف ودون مانع ، منحت كل شيء . .

راقصت الشيطان بل عشقته . . كان الرجل الذي تركت البيت من أجله شيطاناً . . تركته يحركني كيف يشاء . . كنت أرى الدنيا في خطواته . . كل يوم حب جديد .

عطاء بلا حدود . . متعة لا تعرف التوقف . . لم يكتف بأن أكون له وحده . . منحني لكل من أرادني . . وأنا منحت نفسي لكل من أردته . . صعدت وفي الأعلى رقصت . . ففقدت توازني سقطت . . وعندما سقطت حطمت نفسي وكل من حولي . . قتلت الرجل الذي دفعني من أعلى . . الشيطان الذي كان يحركني . . قتلته حتى أعثر على نفسي . . كان لابد أن يرحل . وأن أتأكد من رحيله . . لا أريد أن أغادر وأترك له الدنيا . . فلقد كان أول خطيئة . . أول خطواتي نحو الهاوية . . ما زلت أتذكر جيداً المرة الأولى . . نحن لا ننسى ـ أبداً ـ تفاصيل المرة الأولى .

أمي . . لم أر اللون الأبيض إلا عليك . . لم ألمحه إلا الآن . . امنحيني جزءاً من هذا اللون حتى أرحل به . . أرجوك يا أمي . . أدرك أنني لن أتحرر حتى يغادرني الماضي . . حتى تغادرني ذكريات المرة الأولى .

نهضت الفتاة، اقتربت من الأم، لمست ثوبها الأبيض، منحتها

السيدة يدها ، قبلتها الفتاة بشدة وهي تبكي : أعرف مدى قسوة كلامي عليك يا أمي . . أسمع دقات قلبك المذعورة . . ولكن الندم قاسٍ للغاية . . قسوته بالغة . . أقسى بكثير من الكلمات .

ضمتها الأم إلى صدرها ، همست بألم : الندم توبة .

همست الفتاة : وهل هناك وقت للتوبة ؟

غادرت الأم باكية ، وفي الصباح نُفذ حكم الإعدام .

الرقصة الأخيرة

كانت رغبتي أن أكون وحيدة تماماً في الغرفة ، جلست أمام المرآة ، أضع المساحيق الملونة على وجهي ، أحاول أن أرسم وجهاً آخر ، ابتسامة زائفة ، أحاول أن أصبغ الحزن بألوان الفرح ، أن أُحوِّل هذا الوجه الشاحب إلى وجه ملون ، لكن الألوان لم تساعدني ، كنت أشعر بأن ملامحي الجامدة تنتصر ، وأن لون الحزن أقوى .

نظرتُ خلفي إلى الثوب الملقى على السرير كالجثة ، ثوب أبيض ناصع ، لون العرس ، لون الزفاف ، في نظري كان لون العبودية ، هذا الثوب سيحملني إلى رجل لا أحبه . . ولن أحبه . صوت الأغاني كان عالياً في الخارج ، وألوان الكهرباء تضيء غرفتي كل لحظة بلون جديد ، في كل لحظة كنت أشعر بشيء مختلف .

الجميع في الخارج يرقصون . في الأرياف ، للأفراح مذاق خاص ؛ فهي للبنات لحظات حرية لا يمتلكنها دائماً ، يحتفلون بزفافي إلى ابن عمي ، أحد رجال القرية الأثرياء ، رجل اختارني لأكون زوجة له ، اختارني رغم أنني أكرهه ، بل أكره كل شيء فيه ، مشاعري لم تكن

ذات قيمة ، المهم مشاعره هو ، كرهته ولكنه عشق جمالي ، جمالي قادني إلـيه ، ولهذا كرهت ملامحي ، جمال الملامح صار في حياتي قيداً حرمني من الكثير ، نقلني سريعاً من عالم الطفولة إلى عالم النساء .

في حقـيقة الأمـر لم يكـن هذا الاحتفال ليلة زفاف ، كان صفقة ، باعونـي لهـذا البغيض الذي دفع الثمن ، اشتراني بماله ، رغم أنه رجل بـذيء الطباع ، قبيح الملامح ، سيء السمعة ، متزوج من غيري ، وافقوا عليه ، فتحوا له الأبواب لأنه دفع المقابل ، باعوني مقابل قطعة أرض ، قارنونـي بـالطين ، بـل إن الطين الذي في مثل لون ابن عمي كان أعلى مني قيمة .

بكـيت لأبـي ، توسلت إليه دون جدوى ، الصفقة كانت محكمة ، البـيع لا رجعـة فيه ، الرجوع في القرار فيه مساس بكل رجال العائلة ، وكـيف تـواجه امرأة مثلي رجال العائلة ، بل كل رجال القرية ، كيف تقـول امـرأة : لا ؟ . . . هـذه الكلمة لا يسمعونها من النساء في قريتي أبداً .

كـنت أثـق أن الـرحمة لـن تعـرف طريقها إلى قلوب استبدلت بي قطعـة أرض ، كـنتُ العتـبة الضـعيفة المكسورة التي عبر عليها الجميع دون اكـتراث ، باعونـي وقبضـوا الـثمن ، ثمـني كـان طيـناً أسود ، ما أرخصني .

تذكرتُ أمي، تذكرت صورتها التي لا تغادرني، تجلس أمام فرن البيت تخبز، وجهها أحمر بلون النار، صامتة قليلة الكلام، حدثتها باكية، كنت أريد أن أبقى في مدرسة القرية، تحدثت إليها بصوت مرتفع، وبإحساس طفولي متمرد صرخت، أريدها أن تسمعني، أريدها أن تتكلم، أن أسمع صوتها، أن تشاركني ثورتي، نظرت نحوي، قالت بهدوء قاتل: ماذا ستصنع منك مدرسة القرية ؟ هل ستحولك إلى رجل ؟ لا تعترضي فليس لاعتراضك صوت.

جاء أبي، سمع صوتي، وقبل أن أبدأ في الكلام عاجلني بضربة قاسية أفقدتني توازني، سقطت على الأرض دون بكاء، فقدت صوتي، كتمت الألم، عرفت أنني لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى، أدركت معنى ما تقوله أمي، صرت مثلها، اعتنقت الصمت مبدأ.

وبلا صوت رحلت أمي، رغم آلامها الشديدة رحلت في صمت، كانت شريكتي في خدمة رجال البيت، لم أسمعها يوماً تقول لا، بعد رحيلها أدركت كم كنت أحبها، شعرت أن الفتاة كائن يأتي بلا رغبة ويرحل بلا صوت.

تزوج أبي بعد رحيلها بشهر واحد، لم يشعر بالحزن لحظة واحدة، في البداية كرهت زوجة أبي، شعرت إنها تأخذ مكان أمي في

كـل شيء، كانت مختلفة كثيرة الكلام، بعد فترة من الوقت، وجدتها تذكرنـي بأمـي في شـيء واحـد فقط، بدأ الصمت يسكنها، الصمت نفسـه أمـام فرن البيت، احمرار الوجه نفسه، المشهد نفسه، شعرت أن الصـمت مـن صـفات النسـاء، وأن مـن حق الرجال أن يتحلوا حتى بالقبح.

أنـا امـرأة جـميلة، يجـب أن أكـون هكذا حتى يدفع الرجال، هو رجـل قبـيح، لا يهـم، فلـيكن كما يريد، ولكنه يشتري الجميلات، ينتمي لعالم واسع النفوذ، مسيطر، عالم لعبته المرأة، المرأة في قريتي - حتى في عيون نسائها - يحكمها جمال الجسد.

مـنذ الطفـولة حملـت عـبء أنـوثتي، شغلوني بجسدي، صرت أخجـل مـنه، عـندما أسـير في طرقات القرية الضيقة أحاول أن أخفي معالمـي، أن لا أرفـع رأسـي، كـنت أتعثـر في سـيري أحـياناً كثيرة، أصـطدم بأشـياء لا أراها أمامي، كنت أتعجب: كيف لا ترفع رأسها من تنجب الرجال.. كانت العيون تلاحقني، فرغم المعالم المطموسة كـان الجمال يطل بعيون حلوة ودلالات كثيرة، فالجمال مطارد بعيون لا تفهم إلا لغة الجسد.

طرق على باب الغرفة، إنها زوجة أبي تتساءل باستغراب لماذا لم أرتد ثوب الفرح؟!

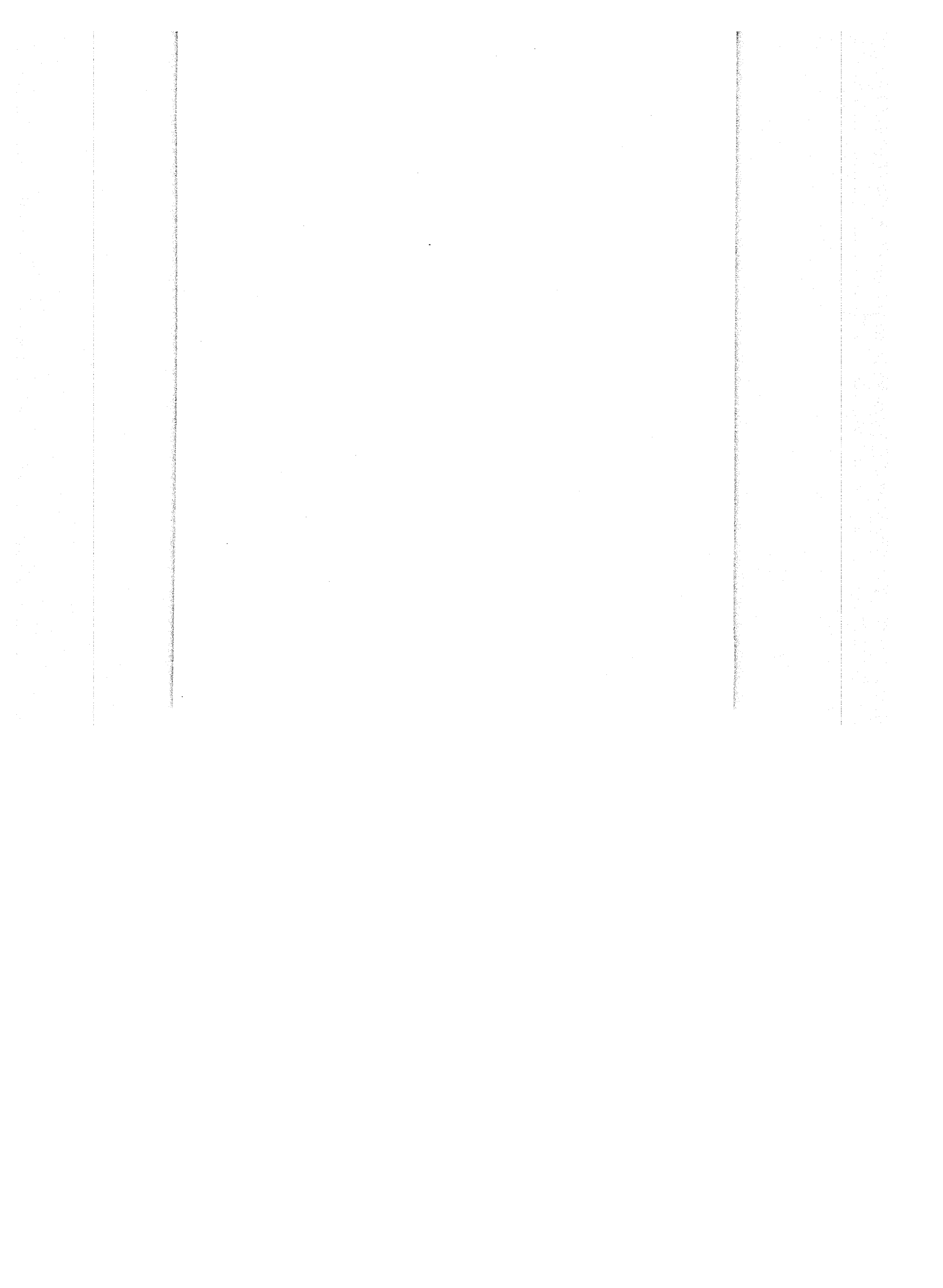
تردد ضاحكة وهي تغادر الغرفة : بسرعة . . العريس وصل .

أغلقت الباب خلفها ، أمسكت الثوب بين يدي . . لا أطيقه ، لا أستطيع أن أجعله يلامس جسدي ، صوت الأغاني عالياً يعلن عن قدوم العريس ، كان لابد أن أحتفل ، أن أتراقص طرباً ، أخرجت زجاجة صغيرة من أحد الأدراج ، شربتها كلها ، بدأت الدنيا تدور ، شعرت بألم شديد في معدتي ، بدأ السم يسيطر على جسدي ، بدأت أتمايل بعنف من شدة الألم ، نظرتُ إلى نفسي في المرآة . . كنت أتراقص بلا إيقاع ، رقصة متخبطة ، إنها رقصة الموت الأخيرة .

كل شيء من حولي يتساقط ، هذه الألوان على وجهي تخفي إحساسي الرهيب بالألم ، صرخت بأعلى صوتي : لا . . . . . كانت أغلى ما رددته .

فجأة رأيت أمي ، كانت تجلس على السرير تنظر إليّ صامتة ، مددت يدي نحوها ، حاولت أن أصل إليها ، لم تتحرك . تابعت الرقص حتى سقطت على الأرض ، ما زلت أسمع أصواتاً بعيدة ، لم أعد أرى سوى أشباح تتراقص من حولي .

لحظة واختفى كل شيء ، أغمضت عيني ، تلاشت كل الصور ، عم الظلام ، صمت مخيف ، لم يعد هناك ألم على الإطلاق ، عندها فقط تحركت أمي وحملتني بعيداً ، بعيداً جداً جداً .



أوراق مبعثرة

اقتربت الطائرة من مطار الأقصر ، إنها المرة الأولى التي أزور فيها مصر وبالتحديد بيت والدي في الصعيد، فتحتُ حقيبتي الصغيرة، أخرجت مجموعة من الأوراق تحمل اسمي وتثبت نسبي لأبي المصري، ومجموعة أخرى تثبت أن لي حقاً في أرض الصعيد البعيدة، نظرت إلى الأوراق في يدي، تساءلت: هل تستطيع هذه الأوراق أن تتحول إلى أموال ؟!

بعد رحيل أمي ومرض أبي الشديد، تغير الكثير بشكل تدريجي؛ شح المال، تنقلت في العمل من مكان إلى آخر، كنت أحتاج إلى المال، وحاجة الإنسان تجبره أحياناً على تقديم تنازلات كثيرة، علمني أبي أنني مصرية تعيش في إيطاليا، رغم المسافات البعيدة هناك رابط خفي بأخلاق الصعيد، مرض أبي كان يتطلب المال، بعت كل الذهب الذي كانت تمتلكه أمي، احتفظت ـ فقط ـ بقلادة فيها صورتها، وبعد دخول أبي المستشفى، بدأت في بيع أثاث البيت.

يبدو أن أبي شعر بمعاناتي الشديدة، رحل في هدوء، كان رحيله

صدمة لي، لقد كان كل شيء والآن لم يعد هناك أي شيء، قررتُ السفر إلى الصعيد لدفن أبي، قالها لي: لقد حرمت من مصر حياً ولا أريد أن أحرم منها ميتاً.. أريد أن يحتضنني تراب الصعيد.

هبطت الطائرة، أنهيت كل الإجراءات، استلمت الصندوق الضخم الذي يضم جثمان أبي، كان الطريق إلى بيت العائلة طويلاً موحشاً، البيت الذي لا أعرفه ولا أعرف فيه أحداً، شعرت بالخوف والقلق، انقبض قلبي حين وضع السائق الجثمان أمام باب البيت، طلبت منه أن ينصرف، لا أريده أن يرى مراسم الاستقبال الحزينة لي!

طرقت الباب، خرج رجل يرتدي خيمة سوداء، جلباباً شديد الاتساع، تأملته كان يشبه أبي إلى حد بعيد، سألني باستغراب: من أنت؟!

انعقد لساني، تمكن الخوف مني، فتحت حقيبتي الصغيرة أخرجت منها ورقة ميلادي، ناولتها له وأنا أخبره من أكون، كنت أرتدي ثوباً أسود، كانت خصلات شعري الصفراء تكسر حدة هذا اللون القاسي، شعرت بالعرق يبلل ثوبي وشعري، لا أعرف رد الرجل، ماذا سأفعل لو رفض استقبالي واستقبال أبي، نظر إلى الصندوق، دخل البيت وأغلق الباب خلفه!

لم أتحرك، قدمي التصقت بالأرض، كيف سأحمل أبي وأرحل، وإلى أين سأرحل ؟

أنا لا أعرف مكاناً آخر ولا طريقاً آخر، مرت الدقائق كأنها ساعات طويلة ثقيلة، هل أخطأت العنوان ؟! وبينما أنا أنظر حولي انفتح الباب مرة أخرى، خرجت منه امرأة تتشح بالسواد، لم أر منها إلا اللون الأسود ووجهاً أسمر تبدو عليه ملامح الزمن، سألتني السؤال نفسه: من تكونين ؟ لم تختلف إجابتي، نظرت إلى الصندوق أمامي، كنت أتابعها بنظراتي، أخبرتها أن هذا الصندوق يضم جثمان أبي، وأنه أراد أن يدفن في مصر، وأن هذا رجاؤه الأخير، فتح الرجل الذي يشبه أبي الصندوق، نظرت المرأة إلى وجه أبي ثم أغلقت الصندوق مرة أخرى، جلست على الأرض، احتضنت الصندوق بكلتا يديها، بكت، رأيت دموعها: ولدي.. غادرت رجلاً وعدت لنا جثة.

ملامحك لم تتغير.. أعرفك تماماً.. لم أنسك لحظة واحدة رغم الألم الذي خلفته في قلبي وقلب أبيك حين اخترت الرحيل رافضاً كل البدائل.. هجرت الصعيد.. قررت أن تتزوج بعيداً وحيداً.. أعوام طويلة مضت.. كيف سأعرفها ؟!

تـوقفت دمـوعها، نهضت، نظرت نحوي مرة أخرى، تأملتني: لستِ منا.. البشرة السمراء والشعر المجعد والعيون السوداء لا تنجب شعراً أصفر وعيوناً زرقاء وبشرة بيضاء.. هذه الملامح لا تنتمي لنا.. هـذه الملامـح كانـت اللعـنة التي رحلت بولدي.. لا نعرف منك إلا الاسـم فقـط، هـذا الاسـم اختار لنفسه الرحيل، خرج من هنا رجلاً وعاد تحمله النساء.

كانـت كلماتها شديدة القسوة، ولكنني عذرتها، دخلتْ البيت، أغلقـوا البّاب مـرة أخـرى، بـاب البيت الذي لم أدخله..، أخرجتُ القـلادة الـتي تحمـل صـورة أمـي، والـتي كانـت مختفـية خلف ثوبي الأسود، وقبلتها.

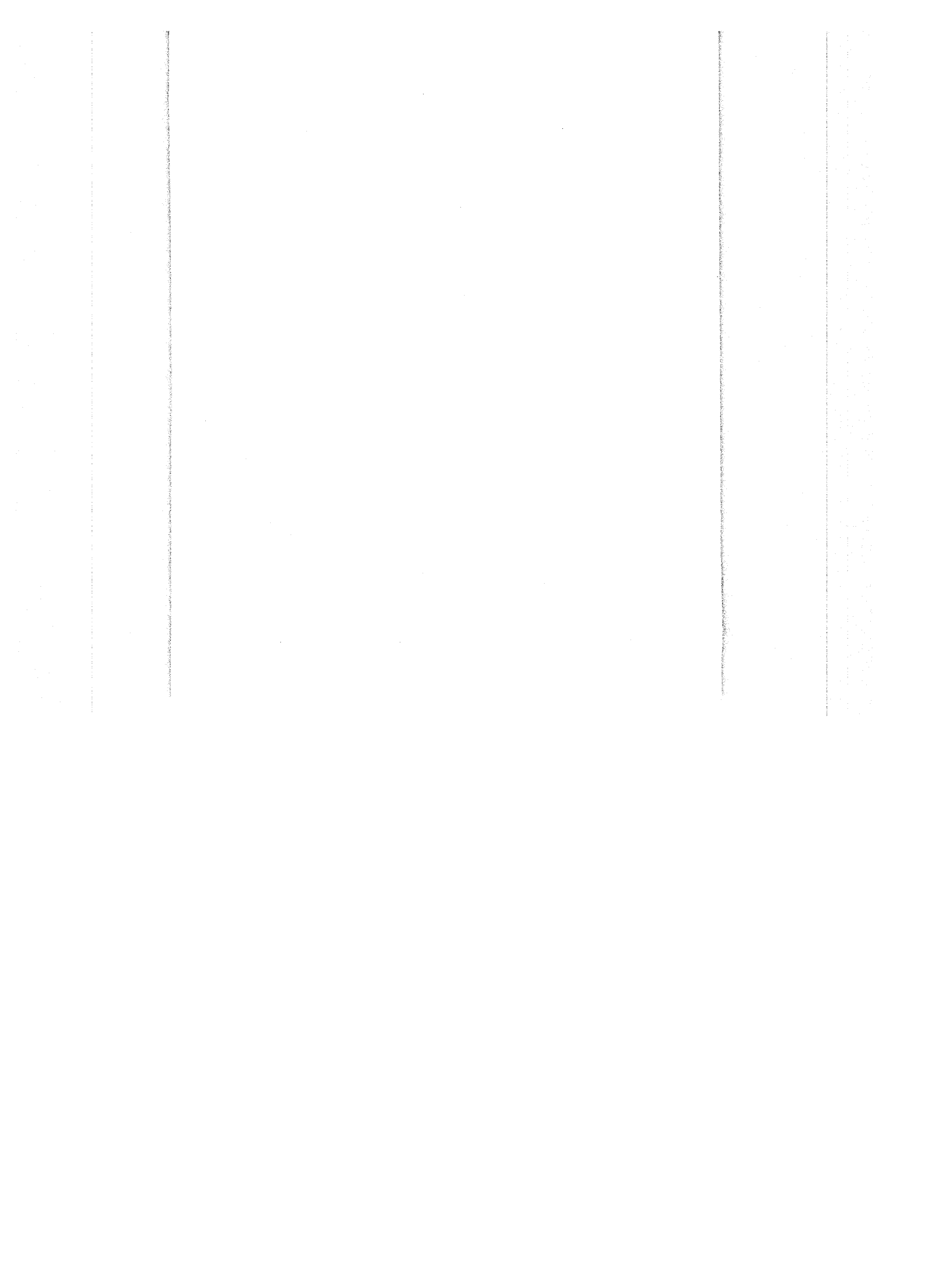
لم أتحرك، لم يكن أمامي إلا أن أنتظر، مرت دقائق طويلة قبل أن ينفـتح الـباب مرة أخرى، ظهر شاب أسمر، حلو الملامح، لا يرتدي جلـباباً، يـرتدي ملابـس حديـثة، اقـترب مـني، مـد يده مصافحاً، صـافحته، شعرت بأنني لا أريد أن أترك يده، إنها أول يد تمتد إليّ في هـذا البـيت، قـدَّم لي نفسه، يحمل لقب العائلة، لا أعرف لماذا بدأت أشـعر بالأمان، حمل جثمان أبي بمساعدة رجل آخر، وضعه في سيارة كانـت تقـف أمـام البـيت، ركـبت معه، عرفت أنهم سيدفنون أبي، تنفست الصعداء.

حـيث توقفت السيارة وجدت قبراً لأبي يحمل اسمه، كأنه ينتظر قدومه، وضعوا الجثة تحت التراب، شعرت الآن فقط أن أبي قد مات، عندما انتهوا بدأت أشعر بالراحة، تحقق لأبي ما أراد، نفذت وصيته، ضممت الحجر الذي كُتب عليه اسم أبي إلى صدري، قَبَّلته، أعرف أنها مجرد أحجار وأن ما وراءها جسد قد مضى، ولكن هذا القبر صار يضم أبي، لن يبق من الجسد سوى لوح حجري عليه اسمه، تحتفظ به مقبرة العائلة على أرض الصعيد.

أخرجت الأوراق التي جئت بها من حقيبتي، ناولتها اليد التي صافحتني، اليد التي امتدت إليّ بالسلام وأنا أتساءل: هل ستفعل هذه الأوراق شيئاً؟

نظر فيها، حَرَّك رأسه بالنفي، كنت أعرف، رفضت أن أمسك بالأوراق، تركتها بين يديه، تسمرت قدماي مرة أخرى، نظرت إلى قبر أبي، تساءلت: قلت لي إن أرض الصعيد لا تتخلى عن أبنائها، هل تخلت الصعيد عني؟

داعب الهواء الساخن شعري، حاول أن يجفف دموعي المنهمرة، قَبَّلت نقش الاسم على الحجر، استنشقت الهواء، كان يحمل رائحة أبي.



حمامة صيد

بعد ممارستي لرياضتي اليومية، رياضة المشي، شعرت ببعض الدفء كنتيجة طبيعية للمجهود الذي قمت به، خفت أن يتسرب الدفء من جسدي في هذا اليوم البارد، فلقد تغلبت البرودة على ضوء الشمس الدافئ، شعرت برغبة في تناول كوب من الشاي الساخن، لعله يعادل برودة الجو الشديدة فيغمرني الدفء فترة أطول.

كان بعض أعضاء النادي يمارسون رياضة أخرى، رياضة الصيد، يصوبون بنادقهم في السماء ويطلقون أعيرة نارية لإصابة هدف متحرك، فيتساقط الحمام، وسقوط الحمام معناه إصابة الهدف، ولكن لابد أن يسقط الهدف في حدود دائرة معينة حتى يحسب نقطة قيمة للرامي ونصراً له. شعرت بالألم، كنت أرى فتحة صغيرة في الأرض يخرج منها الحمام الواحدة تلو الأخرى، ويحاول جاهداً الفرار من الطلقات النارية إلى الحرية، لكن الطلقات ماهرة مثل الموت، نادراً ما تخطئ الهدف.

كنت أرى الحمام يخرج من الفتحة الأرضية مذعوراً، وكأنه يشعر

أنها رحلته الأخيرة، أصابني المنظر الذي تأملته جيداً للمرة الأولى بشيء من الانزعاج، همست لعقلي: هل لابد من التجارب والضحايا حتى تمنحنا الحياة الخبرة؟!

نجحت حمامة بيضاء في أن تطير مسافة أكبر، وأن تعبر نطاق الموت، لمحتها تبتعد وتختفي، تمكن الضيق مني، غادرت المكان دون أن أنتهي من شرب الشاي، شعرت أنه لا يمنحني الدفء المطلوب.

قررت أن استكمل رياضتي، فلقد كانت رياضة المشي تساعدني كثيراً على استعادة نفسي، بدأت أتأمل الأشجار من حولي حتى يغادرني الضيق الذي أشعر به، فمنظر الأشجار الخضراء يبعث في نفسي ارتياحاً شديداً، في طريقي لمحت حمامة بيضاء ميتة يلتف حولها مجموعة من الغربان السوداء، لابد أنها الحمامة التي تمكنت من الهروب، الرصاص أصابها، قاومت، قطعت مسافة أكبر، ماتت بعيداً دون أن تمنح قاتلها أي نقطة تحسب له، قتلها الرصاص فتمكن الغربان منها، كانوا في الانتظار.

أغمضت عيني، كان مشهداً لا أرغب في رؤيته، أكره الموت كما أكره الرحيل تماماً، كلاهما فراق.

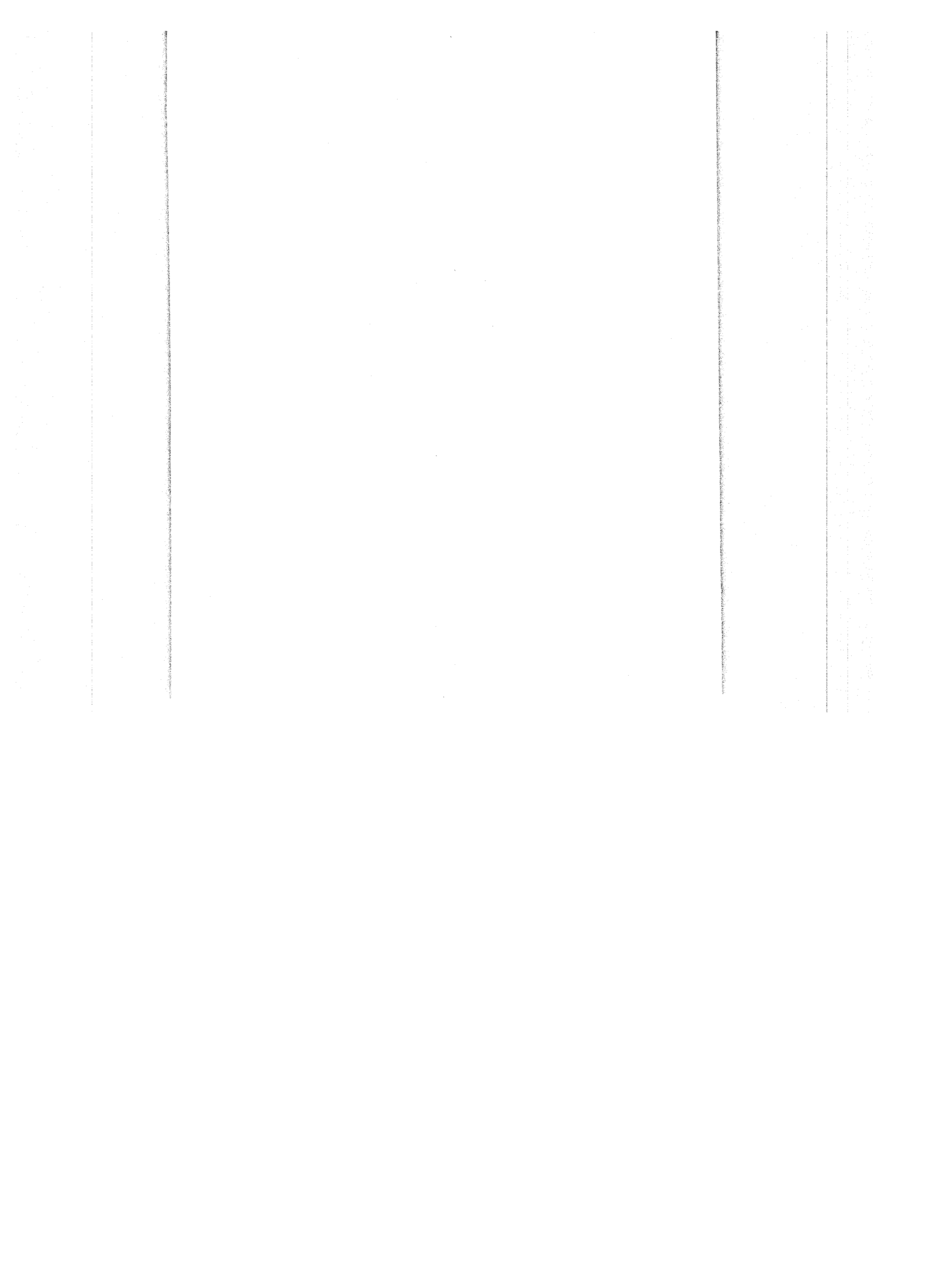
هجرني زوجي لامرأة أخرى، أصابني رحيله بألم شديد، لم يفكر في مشاعري لحظة واحدة، لم يقل - حتى - وداعاً، بكيت وحيدة.

هاجـر وحـيدي مـع زوجـته إلى أوروبـا ، لا يفكـر في العـودة ، يراسـلني ، لكـنه يكـتب دائماً في نهاية الرسالة ، وداعاً ، لم أقرأ سوى الـوداع ، لم يكـتب إلى اللقـاء ، أعرف جيداً أنه لن يعود ، أشتاق إليه كثيراً ، ولكن الشوق لا يصل إليه .

حـين رأيـت الحمامة البيضاء تهرب ، فرحت من أجلها ، شعرت بأنهـا قـد تعثـر علـى بدايـة أخرى ، وحين لمحتها ميتة أدركت أنها لم تبـتعد كـثيراً عما هو مقدر لها ، لم تعرف طعم الحرية طويلاً ، عاشت وماتـت حمامـة صـيد ، أنـا مـثلها ، سـأموت وحيدة بعيداً عن قاتلي ، لكنني لن أكون أبداً ضحية ينتظر الغربان سقوطها .

بدأت أتأمل الأشجار من جديد ، إنها الأشجار نفسها ، تغيب ثم تظهـر مـرة أخـرى بالمعالم نفسها ، لا شيء يتغير ، كل الأشياء تتكرر خلال سيري في " التراك " الدائري .

شـعرت بالـبرودة ، فقررت أن أتناول كوباً من الشاي ، ولكن في مكان آخر .



ثقب في الجدار

اليوم تم طردي من عملي في المستشفى الخاص الذي يمتلكه طبيب مشهور، كنت أعرف تماماً ماذا فعلت، كنت أسرق بعض الأدوية التي في عهدتي، آخذ بعض الأقراص المنومة لا أكثر، لم تكن فعلتي تتناسب مع رد الفعل، غادرت عملي بشكل إجباري، كان كلام الطبيب معي حاداً وقاطعاً، قالها لي بلهجة آمرة: بره.

غادرتُ حجرة مكتبه، وما أن فتحت الباب حتى ظهرت من خلفه امرأة جميلة، لن أنسى ملامحها ولا عطرها الأخاذ، ولا ملابسها الأنيقة، كان من الطبيعي أن أسأل - رغم حزني وشرودي - عن هذه السيدة، عرفت أنها زوجة الطبيب.

سرتُ كثيراً قبل العودة إلى البيت، كان الطريق مزدحماً بالبشر، ولكنه أمامي فقط كان خالياً تماماً، كنت أشعر بوحدة شديدة، أنظر إلى الأرض، أبحث عن أي شيء قد تمنحه لي السماء، ولكن لا شيء.. الأرض خالية.

عدت إلى غرفتي المتواضعة، ليس هناك ما أفعله، أفرغت جيوبي

من النقود، بحثت في كل ملابسي عن أي أوراق نقدية شاردة، وضعت كـل مـا أملـك ـ الآن ـ أمامي، كان من السهل أن أعرف أنني في أزمة شديدة.

مضـت السـاعات ثقيلة وأنا ما زلت في مكاني، لم يكن هناك أي حلـول، طرحت كل شيء وأضفت الكثير، والنتيجة صفر، حاولت الهـروب فغلـبني الـنوم، بدأت ألتقط أصواتاً حادة في غرفتي، كنت أعـتقد في الـبداية بـأنني أحلـم، ولكنني أدركت أنها حقيقة لا حلم، عندما فتحت عينيّ واكتشفت أن الأصوات ما زالت موجودة كأنها في غرفتي.

ثـم بدأت ألمح بعض الدخان يتصاعد من أعلى دولاب حجرتي، دخـان رقـيق يشـبه دخـان السـجائر لـه رائحة حلوة، شعرت ببعض الخـوف، لكـنني أسـرعت نحو الدولاب وحركته من مكانه، كان من السـهل أن أدفعـه، فهـو مـتهالك ضـعيف، مـن خلفه أبصرت أعلى الحائط ثقباً صغيراً تنبعث منه الأبخرة، ويصدر عنه الصوت.

أحضرت كرسياً وصعدت حيث الثقب، نظرت خلاله، كان من السهل أن أميز محتويات الحجرة المجاورة لي رغم الظلام، كانت هناك أضواء خافتة تمنحني الرؤية.

استطعت بسهولة أن أحدد معالم حجرة جاري، هذا الجار الذي كنت أتجنبه، فهو مشعوذ مشهور في الحارة التي أسكنها، بل هو على رأي سكان الحارة " عم بركة ".

كان عم بركة يجلس وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، الغرفة كانت مليئة بالبخور ودقات الطبول، استطعت أن أميز السيدة التي كانت تتمايل مع الإيقاع، إنها صاحبة البيت الذي أسكنه أنا وجاري هذا، إنها السيدة التي تطالبني بالأجرة كل شهر وتهددني بالطرد إذا تأخرت في السداد.

توقف الإيقاع وسكن الصوت، انصرف الجميع وبقيت السيدة، كانت تتحدث بصوت مسموع: هل سيزول الصداع يا سيدنا ؟

- إنشاء الله . . أراك غداً.

ناولته نقوداً لم أعرف عددها، انصرفتْ وبقى هو وحيداً.

هبطتُ، استلقيت على سريري، أخذت أفكر فيما رأيت حتى غلبني النوم مرة أخرى.

في مساء اليوم التالي وفي نفس الموعد تماماً، كانت صاحبة البيت تجلس مرة أخرى في حجرة عم بركة: مازال الصداع كما هو . . لم أنم البارحة . . الخيالات كانت تطاردني من كل صوب.

ـ هل تشربين الماء الذي أعطيته لك ؟!

ـ نعم

ـ هل تغلقين نور الغرفة أثناء الليل !

ـ نعم

هـنا صـرخ عـم بركة في وجهها بشيء من الحدة : لا . . لا تغلقي النور مرة أخرى . . هذا هو السبب !

غـادرت وهـي تتمنـى أن تكـون هذه الليلة هي ليلتها الأخيرة مع الصداع والأرق .

كـان يـراقب الموقف من خلال الثقب كل ليلة ، نسى ما هو فيه ، سمـع حكايـات كثيرة ، عرف الكثير عن أهل الحارة وغيرهم . عندما هبط من على الكرسي ، تذكر أن أوراقه النقدية بدأت في النفاد ، بدأت ترحل هنا وهناك .

فتح دولاب ملابسه ، أخرج شريط الدواء الذي كان يتناولـه لكي يـنام ، أفـرغ محـتويات الشريط أمامه ، بدأ في طحن الدواء حتى أصبح بودرة بيضاء ، أحضر برطماناً قديماً داكن اللون وصغير الحجم ، وضع فيه المسحوق .

في المسـاء سمـع طـرقاً على باب حجرته ، كانت خادمة ـ صاحبة

البيت ـ ، فتح لها الباب، دخلت مسرعة، أحاطته بذراعيها وهي تردد بدلال : الأجرة .

قَبَّلها . . إنه يحبها، فهي فتاة جميلة، تحلم بأن يتزوجها، وهو لا يمتلك حتى أن يحلم، كل ما يعرفه أنه يحبها وأنه يلتقي بها من وقت لآخر، إنها شديدة الكرم معه .

ناولها أجرة البيت والبرطمان الصغير : أريدك أن تقنعي سيدتك بأن تتناول كل يوم قبل أن تنام ملعقة صغيرة من هذا المسحوق . . هذا المسحوق سيكفيها ثلاثة أيام .

نظرت إليه بشيء من الحذر : هل تريد أن تقتلها ؟

حمقاء، تفكير أحمق محدود مثلها، زغدها في كتفها : لا . . أنا أريد أن أعالج صداعها وأرقها الدائم .

ـ وكيف عرفت أنها تعاني من الصداع والأرق .

لم يخبرها بالحقيقة، احتفظ بسره، كان من السهل إقناعها بأي شيء، غادرتْ بعد أن أخذت الأجرة وسمعت قصة لا يصدقها صبي صغير ولكنها صدقتها، فمن يتكلم . . حبيب القلب، لا يهم أن تقتنع بكلامه . . المهم أن تسمعه يتكلم .

مضت أيام، غابت فيها السيدة عن زيارة عم بركة، وبعد أسبوع

كامل كانت الخادمة تطرق بابه مرة أخرى، دخلت كالعادة بسرعة، طوقته بذراعيها، قبّلته ثم بدأت في الكلام: أقنعت سيدتي بأنني عثرت على رجل بركة آخر، تناولت المسحوق، عرفت أخيراً طعم النوم الهادئ.

كان يتابع كلامها بشغف، لا يريدها أن تتوقف، ردد بسرعة: المهم.

تابعت: لقد نامت جيداً الفترة الماضية.. أخبرتني إنها ارتاحت تماماً لذلك الرجل الجديد.. وإنها تريد المزيد من المسحوق الأبيض.

ــ ممتاز.. سأحضر لها المزيد، ولكن أخبريها أن ثمن البرطمان الذي سوف يكفيها لمدة أسبوع آخر.. مائة جنيه.

ـ حسناً.

غادرتْ وبعد قليل عادت بالنقود.

بدأت اللعبة، كان يعرف الأخبار من خلال ثقب الجدار، وما يستطيع أن يعالجه بالدواء يجد الطريق إلى صاحبه أو صاحبته، بدأت الأموال تتدفق، أصبح ثقب الجدار وسيلة وصول، تغيرت حياته ولكنه لم يتزوج الخادمة رغم إنها كانت همزة الوصل بينه وبين أهل الحارة، كان يحبها، كانت كثقب الجدار وسيلة وصول، عوضها

بالـنقود، أغدق عليها، طلب منها أن تبدل ملابس الخدم فهي لم تعد تلـيق بهـا، قبلت بالبديل، أصبحت تساعده من أجل المال وليس من أجل الزواج، استبدلت الزواج بحب لا نهاية له.

كانـت ليلـته الأخـيرة في هذه الغرفة المتواضعة، اكتفى بما حصل علـيه، مـلّ حياة التلصص، قرر أن يترك الحجرة وأن يرحل بعيداً عن هذه الحارة التي تحمل في جنباتها ذكريات يحبها وذكريات يكرهها.

سـيحتفظ بالحجـرة، سيداوم على دفع إيجارها، لن يسمح لسره أن يغـادر جـدرانها، رفـع إيجارهـا عـند صـاحبة البـيت، كانت هذه الحجرة " وش السعد ".

قـبل أن يغـادر قـرر أن يلقـي نظرة أخيرة على عم بركة، أحضر الكرسـي، صـعد، شـاهد في حجـرة المشعوذ امرأة شديدة الأناقة، لا تتناسـب مطلقاً مع الحارة، استطاع أن يشم رائحة عطرها التي تغلبت علـى رائحـة البخور، كانت امرأة جميلة تتحدث بصوت هادئ، شعر أنـه رآهـا مـن قـبل، دقـق النظر، كادت عيناه أن تخترق الجدار كله، أسعفته الذاكرة، عرفها.. إنها زوجة الطبيب.

سمـع شكواها، عرف أنها تعاني زواجاً فاشلاً لا تريده، لابد أن يجـد طـريقاً لها، فطريقها لا يحتاج إلى أدوية مطحونة، إنها لعبة بعيدة

عـن الـدواء، لابد أن يُسَخِّر كل ما يملك في سبيل الوصول لها، فهذه المرأة قد تكون بداية لحياة جديدة، حياة يحلم أن يكون جزءاً منها أو أن تكون جزءاً منه.

العـروسـة

كانت الساعة تدق الواحدة ليلاً، صوت رتيب مكرر لا يتغير يملأ المكان، إنها ماكينة الخياطة، لقد أصبحتْ جزءاً من هذه الماكينة، جزءاً من هذا الجسد الحديدي الأصم.

تـوقفتْ فـتوقف الصـوت الـرتيب، تعـبتْ، أسندت رأسها إلى الماكيـنة، نظـرت أمامهـا إلى الحـائط حـيث صـورة زوجهـا الراحل، تـنهدت، كـان الـنفس عمـيقاً: تـركتني وحـدي. . الحمل ثقيل. . والحـياة لا تـتوقف. . ماضـية لا تنظـر خلفهـا. . تسـرق القلـوب والأبصار والعقول. . هذه الآلة تمنحني الأموال القليلة التي أسير بها في ركب الحياة اللاهث.

ولدان وبنت، من أجلهم تهون الدنيا، ويذبل الجمال، الولدان في المدرسـة، البـنت الصـغيرة معهـا في البـيت، الصـغيرة تكـره ماكيـنة الخـياطة، تكـره صـوتها الـرتيب، تعشـق الرسـم، تطلـب الأوراق والأقلام من أخويها وتدفع ثمناً لها، دموعها الضعيفة، حتى يرق قلب الإخوة، الأم مسروقة بالعمل، لا تشارك الصغيرة اهتماماتها.

عشـقت الصـغيرة عروسـةً ملقاة ضمن مجموعة من الكراكيب في الشـرفة المقابلـة تماماً لشـرفتهم، أصـحاب هـذه الـدار علـى سفر لا يعودون إلا نادراً.

كانـت العروسـة محشـورة ضـمن الكـراكيب ووجهها نحو شرفة الصـغيرة تماماً، وكأنهـا تنظـر إلى الشـرفة كل الوقت بابتسامة ثابتة، أحبـتها الصـغيرة لأنهـا تنصـت لهـا باهـتمام، تعلقت بها، أصبحت العروسـة ـ والـتي لا تملـك الصغيرة مثلها ـ صديقتها الوحيدة، تحكي لهـا أحلامهـا، تحـدثها عن أمنياتها، ما تحب وتكره، تشاهد العروسة كـل رسـومات الصغيرة، تستقبل الرسم بابتسامة فتعرف الصغيرة أن الرسـم جميل. رسمـت الصـغيرة العروسـة الباسمة خلف القضبان، هكذا تراها، فهي مثلها محبوسة خلف قضبان الشرفة.

الأجمـل أن العروسة كانت تنتظر الصغيرة كل الوقت لا تتحرك، حتـى في أحلـك الأوقـات وأسوأ الظروف، بنظرتها الثابتة وابتسامتها الحلوة، دائماً منصتة، كأنها عاشقة للصغيرة الجميلة، كانت الصغيرة تلتقـي العروسـة في أحلامهـا، تشتري لها الملابس الجديدة وتمسح عن وجهها التراب والسواد.

فجـأة. . اختفت العروسة من الشرفة المقابلة، لم تجدها الصغيرة

في انتظارها هذا الصباح كالعادة، عاد أصحاب البيت، وذهبت العروسة بلا رجعة.

انهارت الصغيرة، بكت، كان البكاء مريراً، تلاشى طعم الصداقة العذب، غادرت الأم ماكينة الخياطة إلى حيث الصغيرة، حاولت أن تفهم، قضت اليوم كله مع الصغيرة تحاول أن تفهم، تحاول أن تعرف إلى أي مدى لم تتفهم الصغار، لم تشعر بهم، لم تشاركهم، الأولاد تشغلهم المدرسة وأصدقاء الدراسة، أما الصغيرة فليس لها سوى الجدران، هذه هي المساحة التي تتحرك داخلها، الشرفة وسيلة اتصالها الوحيدة بالعالم الخارجي، والعروسة هي كل العالم الخارجي وكل الأصدقاء وكل الأحلام.

نامت الصغيرة ليلاً باكية، لم يكن هناك أي لعبة أو عروسة تحتضنها، إنها طفلة بلا ألعاب، عالم خالٍ من معالمه.

عادت الأم إلى ماكينة الخياطة، لاحظت بجوار صورة الزوج الراحل ورقة بيضاء، انتزعتها بحرص، إنها رسم بالقلم الرصاص لعروسة خلف القضبان، كيف لم تلاحظ هذه الأوراق المعلقة هنا وهناك، نظرت حولها، على كل حائط صورة صغيرة، ورقة بيضاء تحمل أحلاماً طفولية ورسماً مُعَبِّراً، دمعت عيناها، آه.. يا

صغيرتي . . كم تجاهلتك ، تجاهلتك بأعوام عمرك الخمسة .

عـادت إلى ماكيـنة الخـياطة ، صـنعت للصغيرة عروسة حلوة من بقايـا الأقمشـة ، عـيونها أزرار زرقـاء في مـثل نقاء البحر . انتهت من صنع العروسة ، أمسكتها بين يديها ، قَبِّلتها ، احتضنتها ، لا تذكر آخر مـرة قَـبَّلت فيها أطفالها ، دخلتْ الغرفة حيث تنام الصغيرة ، وضعت العروسـة بـين ذراعيها ، ستكون أول شيء تراه في الصباح وأول جسر يربط بينها وبين الأم ، ستعبر عليه الصغيرة حتماً إلى عالم جديد .

الفهرس

من إصدارات

سنابل للنشر والتوزيع

- **أن تعيش لتحكي**
  السيرة الذاتية
  للكاتب الكولومبي : جابرييل جارثيا ماركيز
- **حكاية إيرنديرا البريئة**
  رواية وقصص أخرى
  للكاتب الكولومبي: جابرييل جارثيا ماركيز
- **ليالي القصف السعيدة**
  نصوص وقصص
  للكاتب العراقي: محسن الرملي
- **ليلة شهر زاد الأخيرة**
  شعر
  مقداد رحيم
- **هاربون عبر نهر إفروس**
  شعر
  حسين حبش
- **السكسفون المجنح**
  شعر
  سامي العامري
- **ممر البستان**
  نصوص وحكايات
  أحمد طه
- **طلسمات مصرية**
  محمد حسين يونس
- **جاتسبي العظيم**
  رواية
  سكوت فيتزجرالد

- **رجال وفيران**
  رواية
  جون شتاينبك
- **بلاد الثلوج**
  رواية
  ياسوناري كاواباتا
- **اقتل الطائر المغرد**
  رواية
  هاربر لي

وتقرأ روائع لهؤلاء الكتَّاب

- **كازنتزاكيس**
- **رسول حمزاتوف**
- **بابلو نيرودا**
- **أرثرميللر**
- **دينو بوتزاتي**
- **اجناسيو سيلوني**
- **إيتالو كالفينو**
- **بورخيس**
- **جراهام جرين**
- **فرانتس كافكا**
- **هولدرلين**
- **فيركور**
- **.............. وآخرين.**